# عَـرفُ الْـعَـبِـيـرِ فِـي تَـواضُـعِ الْـبَـشـيرِ النـذيـرِ

لفضيلة الشيخ: علي ابن عبد الخالق القرني – حفظه الله -

الحمدُ لله يسَّر كـُـلاًّ لِما خـُـلِقَ له و جَعَل الأعمالَ بالخواتيم، خـَرَج موسى خائفا يترقَّبُ فعاد بأهله و هــو الْكـَـلِيْم، و ذهب ذو النُّونِ مُـغاضِباً فالتـَقـَمَـه الحوتُ و هو مُـلِيْم، و نشَـأ محمدٌ عليه و عليهم الصلاة والسلام يتيما فكان الفضلُ لذلك اليتيم، و كل ذلك بتقدير العزيز العليم.

الحمدُ لله، فجَّـرَ الماء من الجُـلْمود، و أخرجَ الثَّـمَـرَ مِن يابِـسِ الْـعُود، و هو الكريم الودود.

و أشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الغفور الودود ذو العرشِ المجيدُ فعَّـالٌ لما يُريد، شهادةَ راجٍ للحُـسنى و المزيد.

و أشهدُ أنَّ محمداً عبده و رسوله ذو المقام المحمود و الحَوضِ المَورود، صلوات الله و سلامه عليه مـــا أوْرَقَ عُـــود، و قَـهْـقَـهَـتْ رُعود، وامتلأت سُدود، و لـُـبِـسَت بُرود، و أُبرِمَتْ عـُـقـُـود، و صَـدَقَـتْ وُعُـود، و خَـفـَـقَـتْ بُـنُـود،

و آلِـــهِ و صحبِـهِ و مَنْ سَلـَـــــكْ طـريـقـهـم ما دار نجمٌ فِـــيْ فـَلـَـكْ

"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تُـقاته و لا تموتـُنّ إلا و أنتم مسلمون"

أما بعــد،

فيا معشرَ الأخيار، غيثَ الأمَّةِ المِدْرار، و ليثَـها الكـَرَّار، مِلح الأرضِ إذا فـَسَدَت، و عَمَـار الدنيا إذا خـَربَتْ، مَنْ أحسَبُ أنكم مِنَ المَعْنِـيِّيْن بما صَدَحَت به و شَـدَت الحناجر:

طُـبِـعوا على كرَم النفوس جِـبِـلَّـةً مَـوروثةً فيهم تُـراثاً مُـتْـلَـدا
لو أنهم عَمَـدوا إلى فِعْـل الخَـنَـــا لأبَتْ طِـبـاعُ نـفوسِهم أنْ تَعْمَدا

حُـيِّـيْتُـم ثُـمّ حُـيِّـيْتُـم، بتحيةٍ مباركةٍ فِطْريةٍ تَـبْـهَـرُ الألباب، و تُـزري بمَـعْسول الرُّضاب، فالسلام عليكم و رحمة الله و بركاته. سلامٌ أرَقُّ من نسمات السَّـحَـر، و ألطفُ من الطَّـلِّ على الزَّهـَـر،

سلامٌ كمـــاءِ الوردِ دِيْفَ بـعَـنْـبَـــرِ و كالمِسك مسحوقاً بخَدٍّ مُـعَـصْـفَـرِ

حيَّـاكم الله و أحياكم، و هداكم و هدى بكم و يسَّر الهُـدى لكم. زوَّدكم ربِّي بزاد التقوى، نجَّاكمُ قَـبْلَ حُـلولِ البَلْـوى،

يا ربِّ وفـِّـقْـنـَـا و كُـلَّ خيرِ هَبْنا، وعنَّـا نـَـحِّ كُـلَّ ضَيْرِ
و امنُـنْ علينا بقضاء الحِـوَجِ و كُـلَّ شِـدَّةٍ و كَـرْبٍ فرِّجِ

معشرَ الإخْـوة،

ما أكادُ أُعْطي موعِداً لأحَدٍ إلا و جرى بخاطري قولُ المُـثـَقـِّـبِ العَـبْـدِيّ:

حسنٌ قَـولُ نَـعَـمْ مِـنْ بَـعْـدِ لا و قَـبـِـيحٌ قَـولُ لا بَعْدَ نَـعَـمْ
إنّ لا بَـعْـدَ نَـعَـمْ فاحِشَـــةٌ فبِـلا فابدأ إذا خِـفْـتَ النَّـدَمْ

و لِذا لما دعاني إخوتي تلكـَّـأتُ و تردَّدْت، و ماطَـلْـتُ ضعفاً و أرْجَـأت، ثُـمَّ وَعَـدْتُ و أخـَّـرت، حتى صار حال مَنْ دعاني: "أطَـلَّـتْ و ما أمْطَـرَت".

أطَـلَّـتْ علينا منك يوماً غمامـةٌ  أضاء لها برقٌ و أبْطا رَشاشُهـــا
فلا غيمُها يـُجلى فيَيْأسُ طامِـعٌ  و لا غيثُـها يأتي فتُرْوى عِطاشُـها

مع عِلمي أن التَّـأنِّـيَ و عدم العجلة خيرٌ إلا في عمل الآخرة. و لكنه ضعفٌ و قلة بضاعة، اقترنت ببقايا جِـبِـلَّـةٍ عربيةٍ مُـجاهَـدَةٍ و غيرِ مُـسَـوَّغة، فالعربُ تتلذذ بالوعود إذا ضُـمِـنت و لو تأخَّـرَت. و لِذا كانوا يُسْقُـون الكَـمُّـون بالوعود يقولون غداً نسقيك وبعد غدٍ نكفيك، فزعموا أنه يخضرُّ و ينمو و يَرْبُـو على المواعيد. يقول قائلهم:

يا ليتني كنتُ كمُّـونا بمزرعـةٍ  إنْ فاتني السَّـقْيُ أغنتني المواعيدُ

و مِنْ أمثالِ عَرَبِ الشَّـام المَيْمون: "بالوعْدِ يا كَـمُّـون".

و كأني بمن دعاني يقول معاتبا:

لا تجعَلَنّي ككمُّونٍ بمزرعـةٍ  إنْ فاتـــه الماءُ أغْـنَـتْهُ المواعيدُ

فأقولُ له: على رسْلِك و لا تُـنْـكِرْ أصلك، فالوعدُ عند العرب تلذذٌ و تذوُّق، والإنجاز طعام. و ليس من صُدِم بالطعام فقُـرِّبَ له فجأةً من دون سابق موعدٍ في اللذة كمن وُعِدَ به، ثُـمَّ ضُـمِنَ له، ثُـمَّ انتظرَ فوجدَ رائحتَـه فسال لها لُـعابُه، فتمَطَّـقَ به و تطعَّـمَه، ثُـمَّ قُـرِّبَ إليه فتذوَّقـهُ، و إنْ تأخَّـر.

فالوعد أحسنُ ما يكونُ إذا تَـقدَّمهُ ضمان

و لعلكم تطـعَّـمْـتُـم و تمطَّـقتُم و سال لُـعابُـكم، و جاء وقتُ الإنجاز و قُـرِّبَـتِ المائدة للفائدة.

قد طيَّـبَ الأفواهَ طِـيْـبُ غِـذائهـا  مِنْ أجْـــلِ ذا تجِـدُ الثُّـغورَ عِذابا
زهراءُ أحلى في الفؤاد من المُنى  و ألـــذُّ من ريق الأحبة في الفَـــمِ

إنَّـها....

عَـرْفُ الـْـعَـبِـيْـــر في تـواضُـــعِ الـْـبَـشِـيْـر النَّـــذيـر

عليه صلوات وسلام الـْعَـلِيِّ الكبير.

منْ شَمَّ عَرْفا لأخلاق النَّبيِّ يقُـــلْ  لا المِسْكُ مِسْكٌ و لا الكافور كافورُ

عَرْفٌ فحواهُ:

"لقد كان لكم في رسول الله أُسْوة"

إنْ لَـمْ يكُن الماءُ مِنْ نَـهْر رسالته فلا تَـشْـربْ، إنْ لَـمْ يكُـن الفَـرَسُ مُـسوَّما على علامته فلا تَـركَـبْ.

عَـوداً إلى نبعه الصافي و روضته  نَـجْـني ثمار المعالي مِنْ رَوابـــيـهِ
تَـحْيا القلـوب إذا عادَتْ لمنبعهـــا  و الرَّوضُ يُـزهِرُ إنْ غيثٌ هَمَا فيـهِ

---

عَـرْفٌ يقول:

ما أضـْيَعَ الياقوتَ في جِـيْدِ الأَمَة

إذا الأخلاقُ بعدَ العِــلمِ ســـــاءتْ فكُـلُّ الجَهْلِ في فصلٍ و بابِ

و هو مَعَ ذا عَـرْفٌ يقول لكل ذمِيمٍ لَـئِيْمٍ شَـتِيمٍ يَـسْخَـرُ بالنبيِّ الكريم:

قد ارتـقيتَ مُـرْتَـقـاً صعْبـا فمــا قـــد قُـلْـتَ فيهِ لا يُجاوز الفَـما

شَـبَّـهْتُ ما قد قُـلْـتَـهُ نَـفْـخَ الْـوَزَغ في النارِ إذ أوحى الإلهُ لها ابْرُدي

فالصَّقرُ في العلياء يا مِسْخارُ لا يَهابُ كلبةً أو قُـبَّـرَة

---

عَـرْفٌ يقول:

إننا أمَّة تمضي وراءَ دليلٍ بصيرٍ بالسُّـبُـل... و هو خاتَمُ الرُّسُـل.

مَنْ وطِئَ برسالته الحصباء فكانت إثْـمِـداً يكتحِلُ به السُّعداء. و أمَّـته هي الأمَّة الأخيرة، إن تنكَّـبَتْ طريقَـهُ هلَـكَـتْ و غرقَـتِ السفينةُ التي تَـحمِلُ الذَّخيرة.

فلا يُـرتَـجى نصرٌ و لا كشْفُ عِلَّـةٍ إذا جـــاء داءٌ مِنْ مكـــانِ دواءِ
إلى الماءِ يسعى مَنْ يَغَـصُّ بِـرِيْقِـهِ فقُـل أين يسعى مَنْ يَغَـصُّ بماءِ

---

و هو مَعَ ذا عَـرْفٌ يقول:

مَنْ تَـجَـرَّدَ مِنْ لباس أخلاق الإسلام أمسى سَوْءَةً في خِزيٍ و إسفافٍ و تطفيف، و أصبحَ نَـكِرةً بعدَ تعريف.

فلا الطيورُ على أغصانه صَـدحَـتْ و وردُهُ مالَـهُ في الغصن إيْـراقُ

وحينها...

لا العِيدُ عيدٌ و لا الإشراقُ إشراقُ و لا الصباحُ بوجه الأرض برَّاقُ

---

عَـرْفٌ يقول:

إعْرِفِ المرءَ مِنْ فعله لا مِنْ كلامه، و مِنْ عينِهِ لا مِنْ لسانِه،

إنْ غرَّك القولُ فانظُـرْ فِـعْـلَ قائلهِ فالفعلُ يجلو الذي بالزيفِ يَسْتَتِرُ

و ما أنا معشرَ الإخوة حين أتكلم عن خُـلُـقه صلى الله عليه و سلم إلا كمن يحاول جمعَ البحر في كأس، و حصرَ الدنيا في صندوق، و جمعَ المُـحيطِ في كفّ، وهذا ما لا يكون...

هيهاتَ أُوْفِ القولَ في خير الوَرَى مِنْ بعدِ ما صَدَعَتْ بمدحٍ "نونُ"
لكنْ أُعيدُ القول فيه لَـعَـلَّـــــني مِنْ تـابِـعِـيه الفائـزيـنَ أكـونُ

و اللهَ أرجو المَنَّ بالإخلاصِ فإنه الطريقُ للخــلاصِ

---

عَـرْفُ الـْـعَـبِـيْـر في تـواضُـعِ الـْـبَـشِـيْـرِ الـنَّـذيـر

تواضُعُهُ... ما تواضُعُه،

أُقْـسِمُ ببارئ النَّـسَـم، و خالقِ الخَـلْـقِ مِنْ عَدَم، إنَّ تواضُـعَـهُ لا يُجارى و لا يُبارى.

لَمْ ترَ العينُ لــه مِثْـــــلاً و لا خَـطَـرَتْ أوصـافُـهُ في أُذُنَـيْـنِ

لا يَرى له فضلاً على أحَد، و له الفضلُ على كُـلِّ أحَد، و هو خيرٌ مِنْ كُـلِّ أحَـد، قدِ انكسرَ قلبُهُ للهِ الواحد الأحَد. فخَضَعَ للحق و انقاد له و قَـبِـلَـهُ مِنْ مَنْ قاله صغيراً أو كبيرا، شريفاً أو وضيعا، حُرًّا أو عبدا، ذكَـراً أو أنثى.

صلَّـى الظُّـهْرَ أو العصرَ يوماً ركعتين كما في الصحيح ثُمَّ سلَّـم، و شعرَ بنقصٍ و خللٍ لا يدري ما سببه، فقام لخشبةٍ معروضةً في المسجد فاتَّـكَـأ عليها و كأنه غضبان قد وضع يدَه اليُمنى على اليُسرى وشبَّـكَ بينَ أصابعه، لأنَّ نفسَـهُ الكبيرةَ تُـحِسُّ بأنَّ هناك شيئا لم تستكمِلْه. و لِـهَـيْـبَـتِهِ صلى الله عليه و سلم لم يَجْرُؤ أحدٌ أنْ يُـفاتِحَه، حتى أبو بكرٍ و عُمَرُ أكابرُ صحابته. فقام ذو اليدين و قطع ذلك الصمتَ قائلا: يا رسولَ الله، أنسيتَ أمْ قُـصِـرتِ الصلاة؟ فقالَ بناءً على ظنِّـهِ: "لمْ أنْـسَ و لم تُـقْـصَرْ" فقال ذو اليدين: بل نسيتَ، فقال صلى الله عليه و سلم مُتثـبِّتا: "أكَـمَا يقولُ ذو اليدين؟" قال الصحابةُ: نَـعَـمْ. فقام و صلى ما تَرَكَ و سَجَدَ للسَّـهْـو بعد أنْ سلَّـم، و كأنّ شيئاً لم يكن.

خُـلُـقٌ عظيم، زكَّـاه العليُّ العظيم:

"و إنك لَـعَـلَـى خُـلُـقٍ عظيم"

جَعَلَ كبيرَ المسلمين بمنزلةِ أبيه، و صغيرَهم بمنزلةِ ابنِه، و نظيرَهُ في السِّنِّ بمنزلةِ أخيه. فوقَّـرَ الكبير، و رحِمَ الصغير، و أعْطَـى كُـلَّ ذي حقٍّ حقَّـه.

فلـمْ يكُنْ أحَدٌ يُـلهِـيْهِ عن أحــــدٍ كأنَّـه والــدٌ و الـنَّـاسُ أطــفــالُ

و كيف لا يكون كذلك و قد أنزلَ اللهُ عليه فيما أنزل أنَّ الجنَّـةَ دارُ المتواضعين:

"تلك الدار الآخرة نجعلُـها للذين لا يريدون عُـلُـوًّا في الأرض و لا فسادا، و العاقبة للمتقين"

و أمَـرَه بالتواضع للمؤمنين:

"و اخفِض جناحَكَ للمؤمنين"

و أوحى إليه أنْ تواضعوا حتى لا يَبغِيَ أحدٌ على أحد و لا يفخَـرَ أحدٌ على أحد.

فهو سيِّدُ المتواضعين، بل سيِّـدُ ولدِ آدمَ أجمعين، قد أخَـذَ بزمَامِ هذا الخُـلُـقِ العظيم. فهو أحـقُّ مَنْ فيه قيل:

قُـسِـمَ التواضعُ في الأنام جميعِـهِم فـــذهبــتَ أنتَ فقُـدْتَـهُ بزمامــهِ
و ذهبتَ أنتَ برأسهِ و سنامِهِ

كان يأتي ضعفاءَ المسلمين يزورهم، يعُودُ مرضاهم، يشهدُ جنائزَهم، يتعهَّـدُ حاضِرَهم، و يسألُ عَنْ مَنْ غابَ منهم.

لما وصل (تَـبُـوك) سأل: "أين كعبُ ابن مالك؟"،

و لما رأى رجلا عن بُـعْـدٍ قال: "كُـنْ أبا خيثمة"، فكان.

و بَـعْدَ إحدى غـزَواته فَـقَـدَ أحَدَ أصحابِـه مِنْ مَنْ لا يأبَهُ الناسُ له فقال: "هل تفقدون مِنْ أحَد؟" قالوا: فُلانا و فُلانا و فُلانا، قال: "هل تفقدون مِنْ أحَد؟" قالوا: لا، قال: "لكنِّـي أفقِدُ جُـلَـيْـبِـيْـباً فاطلُـبوه". فطلبوه فوجدوه قد قَـتَـلَ سبعةً مِنَ المشركين ثُمَّ قتلوه، فقال: "هذا مِـنِّـي و أنا مِـنْـه" ثم وضَـعَـهُ على ساعِـدَيْهِ حتى أدخَـلَـهُ قبرَه.

تواضُـعٌ قد شـــاعَ في الــبــلادِ و ذاعَ في الحَـــضْرِ و في البَوادي

كذا كان مع أصحابه، يشفَـعُ لهم، يقضي حوائجَـهم، يتخوَّلُـهم بالموعظة، يعفو عَنْ مُسيئهم، يقضي ديونَـهم، يُـفَـرِّجُ كُـرُبَهم، يُـعلِّـمُ جاهلَـهم، يُطعِمُ جائعَهم، يَكسُو عاريَـهم، يُـسلِّـمُ على صبيانهم، يمسحُ على رؤوسهم، يُداعِبُهم، يُـجْـلسِهُم في حِـجْـره، يُـحَـنِّـكُـهُم، يدعو لهم، يُـدْخِلُ السرورَ عليهم.

لا يحسِبُ جليسُه أنَّ حداً أكرمُ عليه منه، ما حدَّثَـه أحدٌ إلا مالَ بأُذُنِه إليه، ما صافَـحَ أحداً فيرسِـلُ يَدَهُ حتى يُـرسِلَها مُقابِـلُـه، يُـكْـرِمُ من دخلَ عليه، و رُبَّمَا بسط له ثوبَه و آثرَهُ بوسادته، يُـجيبُ الدعوة، و يَقْـبَـلُ الهديَّـة و يُـثِـيْبُ عليها، و إذا رَدَّها أبْدى سَبَبَ ردِّها تطييباً لخاطِرِ مَنْ أهْداها. و يقول في تواضعِ النُّـبُـوَّة:

"لو دُعِيتُ إلى كُـراعٍ لأجَبْتُ، و لو أُهدِيَ إليَّ ذراعٌ لَـقَـبِـلْـت"

يُـجالِسُ الفُـقراءَ و المساكين، يؤاكِـلُـهُم و يقول:

"أبْـغونِـي ضعفاءَكم، إنما تُـنصرون و تُـرزقون بضعفائكم".

و يُعلنُها في إخباتٍ و تواضع:

"اللهمَّ أحيِـني مسكينا، وأمِـتْـنِـي مِسكينا، و احشُـرني في زُمْـرة المساكين".

تواضَــعَ لمَّا زاده اللهُ رفْـعــــةً كذاك جليلُ القَـدْرِ جَــمُّ التواضُـعِ

لِـهَـذْيِـهِ انـْـهَـضْ فهو بالمتابعــة الخَـبَـرُ الجُـزْءُ الـمُـتِـمُّ الـفـائــدَة
عـلـيـه صلَّـى اللهُ ثُـمَّ سلَّـمـــا و آلـهِ و صَـحْـبِـهِ و تـابِـعٍ سَـمَا

---

كان صلَّـى الله عليه و سلم أعظمَ الناسِ تواضُعا...

شَـمَخَـتْ رُتـْبَـتُـهُ فوقَ الثُـرَيَّـا و هو لـمْ يشمخْ بأنفِ الكبريـــاءِ

لا تُـغـْلقُ دونَـه الأبواب، و لا يقومُ دونَـه الحُـجَّـاب، و لا يُـغدى عليه بالجِـفانِ و لا يُـراح، بَارِزٌ مَنْ أرادَ أنْ يلقاهُ لـقِـيَـه.

أتاهُ (عَـدِيُّ ابنُ حاتمٍ) في مسجده وقد طوَّف الأرضَ هرباً حتى وضعَ يدَه في يدِه، و في ذِهنِهِ تَـصـَوُّرٌ أنَّـهُ صلى الله عليه و سلَّم إمّـا مَـلِـكٌ أو نبيّ، لأنّ تبَـعِـيَّـةَ الناس لا تكون لأحدٍ في ذهنه إلا بهذين العاملين. قال عَـدِيٌّ: فانطَـلَـقَ بي، و واللهِ إنه لعامِدٌ بي بيتَـه، إذِ استوقفَـتْـهُ امرأةٌ ضعيفةٌ كبيرةُ السِّـنِّ معها ابنُـها، فوقفَ لها طويلا تُـكلمُه في حاجتها. فقلتُ في نفسي: واللهِ ما هذا بمَـلِـك. قال: ثم أخذ بيدِيْ وانطلقَ بي إلى بيته و قال: "اجلس" و ألقى عليَّ وسادة من أدَمٍ محشوّةً بِـلِـيْـف و قال: "خذها فاجلِسْ عليها" قال: فجلستُ عليها و هو على الأرض، فقلتُ في نفسي: واللهِ ما هذا بمَـلِـك.

و في تواضُـعِ النُّـبُـوَّة دعاه إلى الإسلام: "أسْلِـمْ يا عَـدِيّ... لعلَّـه إنما يمنعُـك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجة أهله؟ وَايْمُ الله ليوشِكَـنَّ أنْ يفيضَ المالُ بأيديهم حتى لا يوجدَ مَنْ يأخُـذُه. لعلَّـه إنما يمنعُك ما ترى مِنْ قِـلَّـةِ عدد المسلمين و كثرة عدوِّهم؟ وَايْمُ الله إنْ طالتْ بك حياةٌ لتَـرَيَـنَّ الضَّـعِـينَـةَ تَخرجُ من الحِـيْرةِ إلى بيت الله لا تخشى إلا الله. لعلَّـه إنما يمنعك ما ترى أنَّ المُـلْـكَ لغيرهم؟ وَايْمُ الله لئنْ طالتْ بك حياةٌ لتَـرَيَـنَّ قُـصُـورَ كِـسْـرى قد فُـتِـحَـتْ و أُنفِـقَـتْ كنوزُها في سبيل الله".

جَـبَـلُ الـثَّـلْـجِ تلاشى حينـمـا رَنَـتِ الشمسُ بعينيـها و ذاب

زالتِ الغِـشاوةُ عن عينيه، و سقطتْ حُجُبُ الجاهليَّـةِ عنه،

و الليلُ ولَّـى و الظَّـلامُ تَـبـدَّدا و الصُّـبح أشرقَ و الضياءُ تَجدّدا

شهِـدَ الشَّـهادتين، و رأى بأمِّ عينه ما أخبره به رسول الله، و أقسَـمَ لَـيَـرَيَـنَّ ما لم يرَهُ بـعْـدُ إيماناً بقول رسول الله صلَّـى الله عليه و سلَّـم. حالُـه:

و إنْ تراكـمَـتِ الظَّـلْماءُ في طُـرُقي فلِيْ مِنَ الوَحْيِ في الأحداثِ كشَّافُ

مُـعلِـناً أنَّ أعظمَ عامِلٍ لاجتذابه إلى الإسلام هو تواضعُ رسولِ الله صلَّـى الله عليه و سلَّـمَ الجَـمّ... أيُّـها الشُّـمّ.

"لقد كان لكم في رسول الله أُسْـوَة"

لـقد أكمل اللهُ الهـُدى برسولِـــهِ فكلُّ الهـُدى ما بين ذِكْـرٍ و سُـنَّـةِ

صلـَّـى علـيهِ اللهُ ذو الجـــلالِ و صَـحْـبـِهِ و حِـزبِـــــهِ و الآلِ

---

كان صلـَّـى الله عليه و سلم أشدَّ الناس تواضعا...

تـَـواضُعُهُ أعْلاهُ ثُمَّ ارتـَقـَتْ بـه نُـبُـوَّتـُـهُ فِـيْ الباذِخـَاتِ السَّوامِكِ

اختارَ أنْ يكونَ عبداً رسُولا عنْ أنْ يكونَ مَلِكـاً نـَبـِيًّا، و يكفيه شرفاً قول ربِّـه:

"سبحان الذي أسرى بعبده"

و لِعِظَـمِ تواضُعِهِ نـَهَـى عنْ إطـْـرائِهِ و رَفـْعِـهِ فـَوْقَ مَـنـْزِلـَـتِـه

"لا تـُـطـْـروني كما أطـْـرَتِ النصارى ابْنَ مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا عبدُ اللهِ و رسولـُه"

"ما أُحِبُّ أنْ تـَـرْفعونِي فوقَ مَـنـْزِلـَـتِـيَ التي أنـْزَلـَـنِـيْـها الله"

لا يـَقـُـومُ أصْحَـابُه لهُ إذا رَأوه لِـمَا يَـعـْلـَـمُـونَ مِنْ كـَـرَاهِـيَـتِـهِ لـَـه.

و لمَّا قال له رجلٌ: يا خـَـيْـرَ البَرِيـَّـة، قال: "ذاك إبراهيم".

تـَـراهُ بَـيْـنَ أصحابِـهِ دُونَ أنْ يَـتـَـمَـيَّـزَ عليهم، حتى إنَّ الدَّاخِـلَ لا يَعْرِفـُـهُ و لا يُـمَـيِّـزُهُ مِنْ بينِ أصحابِـه.

لمَّـا قـَـرُبَ مِنَ الـْمَـدِيْـنـَـةِ فِـيْ هِـجْـرَتِـهِ لـَـمْ يُـمَـيِّـزُوا بَـيْـنـَـهُ و بَـيْـنَ أبي بكرٍ حتى أصابتْهُ الشَّـمْـسُ فقامَ أبو بكرٍ يُـظِـلـُّـه، فعرفوا أنـَّـهُ رسول الله صلى الله عليه و سلَّـم.

يـَدخـُـلُ الأعرابيُّ المسجدَ و الرسول صلى الله عليه و سلَّـم بينَ أصحابه فيقول: "أيـُّـكـُـمْ مُـحمـَّـد؟".

كانَ مِـنَ التـَّـواضـُـعِ للهِ على حالٍ لـَـمْ يـَـكـُـنْ عليه حالُ أحَـدٍ قـَـطّ...

سَجَـدَ في الماء و الطين حتى رأوا أثـَـرَ الطـِّـينِ في جبهته،

و باعَ و اشترى، و حَـمـَـلَ متاعَهُ دون خـَـدَمٍ و لا حَـشَـم و لـَـمْ يَـفـْـقِـدْ هَـيْـبَـتـَـه.

متواضعٌ و النـَّـجْـمُ دُونَ مَـحَـلـِّـهِ و كـَـذا تـكونُ شَـمَـائِـلُ الأمْـجَـــادِ
صلـَّـى عـَـلـَـيْـهِ بـَـارِئُ الـْعِـبـَـادِ مـــــا جـَـــرَتِ الأقـْـــلامُ بالـْمِـدادِ

---

كان صلـَّـى الله عليه و سلمَ مثالَ تواضعٍ لا نظيرَ له...

ما رأى الـرَّاؤونَ خـُـلـُـقاً مِـثـلـهُ خـُـلـُـقـــاً أكـْـمَـلـَه البَرُّ الـــرؤوفُ

لا يَأنَفُ أنْ يَمْشِيَ مَعَ الأرْمَلَةِ و المِسْكينِ و العَبْدِ حتَّى يَقْضِيَ لِكُلٍّ حَاجَتَه.

في صحيح مسلمٍ عن أنس رضي الله عنه أنّ امرأةً كان فيْ عقلها شيء قالت: "يا رسولَ الله، إنّ ليْ إليك حاجَة"، فقام يُكْنِيْها و يُكْرِمُها و يُشْفِقُ عليها

أُكْنِيْهِ حينَ أُناديهِ لأُكْرِمَهُ و لا أُلَقِّبُهُ و السَّوْءَةُ اللَّقَبُ
كذاك أُدِّبْتُ حتى صار مِنْ خُلُقي أنِّيْ وَجَدْتُ مِلاكُ الشِّيْمَةِ الأدَبُ

يقول: "يا أمّ فلان، انظُري أيَّ السِّكَكِ شِئْتِي حتَّى أقْضِيَ لَكِ حاجَتَكِ"، فخَلا مَعَها فِيْ بَعْضِ الطُّرُقِ حتى فَرَغَتْ مِنْ حاجَتِها.

تِلْكُمْ أيادِيْهِ و أخْلاقُهُ ظِلٌّ ظَلِيْلٌ و مَحَلٌّ رَفِيْع

كان إذا صلَّى الْغَداة جاءَ خَدَمُ المدينةِ بآنِيَتِهِمْ فيها الماء، فما يُؤتَى بإناءٍ إلا غَمَسَ يَدَهُ فيه و لَوْ جاؤوهُ فِيْ الغَدَاةِ الباردة.

خُلُقٌ مِنْ ذَوْبِ شَهْدٍ شِيْبَ بالْمَاءِ الْفُرات

تأمَّلْ غايةَ التواضع، حين تأتيه امرأةٌ لا رجُل، أَمَةٌ لا حُرَّة، و تأخُذُ بِيَدِهِ في إشارةٍ إلى غاية التَّصَرُّفِ فيه حتى لو كانت حاجة هذه الأَمَةِ خارجَ المدينة. في الصحيح عن أنسٍ قال: "إنْ كانتِ الأَمَةُ من إماءِ المدينةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رسول الله صلى اللهُ عليه و سلَّمَ فتنطَلِقُ به حَيْثُ شاءتْ".

يَتَّقِيْ الكِبْرياءَ و يَدْرِيْ بِأنْ لَمْ يُؤْثِرِ الكِبْرِياءَ إلا الْوَضِيْعُ

خُلُقٌ عظيم، زكَّاه الْعَلِيُّ العظيم:

"و إنك لعلى خُلُقٍ عظيم"

صَلَّى عليهِ بارئُ الْعِبادِ ما أمْطَرَتْ سُحْبٌ و سَالَ وادي

---

كان صلَّى الله عليه و سلمَ إمامَ تواضُع بلا مُنازع...

فتلك براهينُ أخلاقِهِ كشمس الضُّحى إذ بَدَت سافِرَة

تواضَعَ في بيتِهِ فكان في خِدْمَةِ أهْلِه و هو قادِرٌ على أنْ يستعين بالخَدَمِ لِخِدْمَتِه.

لمَّا سُئلَتْ عائشةُ رضي الله عنها ما كان النبيُّ صلى الله عليه و سلَّمَ يصنعُ في بيته قالت: "كان يكونُ في مِهنَةِ أهلِهِ، فإذا حَضَرَتِ الصلاة قام إلى الصلاة".

كان بَشَراً مِنَ البَشَر، يَخِيْطُ ثوبَه، و يَخْصِفُ نَعْلَه، و يخدِمُ نَفْسَه، و يحلِبُ شاتَه، و يَعْلِفُ دابَّته و يَفْلي ثوبَه و يعملُ ما يَعْمَلُ الرِّجالُ في بيوتهم.

يؤتى بالتَّمْرِ فَيُفَتِّشُهُ و يُخْرِجُ السُّوسَ مِنْهُ ثُمَّ يأكُلُه.

يُصْغِيْ الإناءَ للهِرَّةِ لِتَشْرَبَ ثُمَّ يَتَوَضَّأ بِفَضْلِها.

يجلسُ على الأرض، و يأكُلُ على الأرض، و يَلعَقُ أصابِعَه، و يقُولُ آكُلُ كما يأكلُ العَبْد، و أجْلِسُ كما يَجلِسُ العَبْد، و هو خَيْرُ أهْلِ الأرضِ مِنْ حُرٍّ و عَبْد.

لم يكُنْ له فُرُشٌ وثيرة أو مجالسُ زاهية، فكان يجلسُ على الأرض، و ينامُ على الحَصِير. وسَادَتُهُ التي يَتَّكِأُ عليها مِنْ جِلْدٍ محْشُوٍّ بِلِيف، و فِراشُهُ الذي يَنَامُ عليه كذلِكْ، و رُبَّما نامَ على الحَصِيرِ فأثَّرَ فِيْ جَنْبِه.

أتاهُ عُمَرُ يوماً و قد نامَ على حَصِيرٍ أثَّرَ في جَنْبِه فهَمَلَتْ عَيْناه، و جَثَى عَلى رُكْبَتَيْهِ و قال: صَفْوَةُ الله مِنْ خَلْقِهِ فيما أرى و فارسُ و الرُّمُ يَعْبَثُونَ بالدُّنْيا، أُدْعُ اللهَ يا رسولَ الله، فاحْمَرَّ وَجْهُه و قال: "أوَفِيْ هذا يابن الخَطَّاب؟! أولئك قومٌ عُجِّلَتْ لهم طيِّباتُهُم، أمَا تَرْضَى أنْ تكونَ لهم الدُّنيا و لنا الآخِرَة".

فَذا هَمٌّ سَمَا فَوْقَ السَّمَاءِ

أبْيَاتُهُ ما أبْيَاتُه...

أبياتٌ متواضعة، تِسْعَةُ أبْيَاتٍ مِنْ جَرِيْدٍ مُطَيَّنٍ بِطِيْنٍ و حِجَارَةٍ مَرْضُومَة، يَدْخُلُ الغُلامُ فينال السَّقْفَ بِيَدِه.

و قَبِيْحٌ بالوَضِيْعِ الْكِبْرُ لكِنْ حَسَنٌ خَفْضُ جناحِ الكُبَرَاءِ

يَلْبَسُ الثِّيَابَ المُتواضِعَةَ النَّقِيَّةَ النظيفةَ على قُدْرَتِهِ على أنْ يَلْبَسَ أفْخَرَ و أحْسَنَ الثِّيَابِ، فِيْ حِيْنِ يَقْسِمُ على أصحابِهِ أقْبِيَةِ الدِّيْباجِ و خَيْرَ الثِّيَابْ.

تَواضَعَ حتى عَاشَ في ثَوبِ زاهِدٍ و أخمُصُهُ حَلَّ السِّمَاكَ و فَرْقَدا

لمَّا حَجَّ حَجَّةَ الوداع معه مائة ألفٍ مُسْلِم يَصْدُرُونَ عَنْ رَأيِهِ و أمْرِهِ و نَهْيِه، يَرْقُبُونَ حَرَكاتِهِ و سَكَنَاتِهِ لِيَقْتَدُوا به، كان في غايَةِ التَّواضُعِ لله على رَحْلٍ رثٍّ عليه قَطِيْفَةٌ لا تُسَاوِيْ أربَعَةَ دراهِم. و يَقُولُ مَعَ ذلك:

"اللهم اجعله حَجًّا لا رياءَ فيه و لا سُمْعَة"

لا يَتَمَيَّزُ عَنِ الحُجَّاجِ بشيء، حتى إنَّهُ رَفَضَ أنْ يُخَصَّ بماءٍ دُوْنَ النَّاسِ لَمْ تُجْعَلْ فِيْهِ الأيْدِي، و قال لعمِّهِ العبَّاس حين عَرَضَ عليه ذلك: "لا حاجةَ لِيْ فيه، أسْقوني مِنْ ما يشربُ الناس".

و يُرْدِفُ أسامةَ على دابَّتِه مِنْ عَرَفةَ إلى مُزْدَلِفَةَ أمام الناس و هو مِنَ المَوالي.

و يَقِفُ لامرأةٍ مِنْ آحادِ الناس يستمعُ لها و يُجيبُ عَنْ أسئلَتِها.

لم يُصْرَفِ الناسُ عنه، فكلٌّ يَصِلُ إليه و يقضِي بُغْيَتَه.

لَمْ يَتْرُكْ نَحْرَ هَدْيِهِ بِيَدِه، إذ نَحَرَ بيَدِه الشريفة ثلاثاً و ستين بَدَنَة ثُمَّ أنابَ ابنَ عمِّه.

فاللهُ إذ قسَمَ التَّواضُعَ فِيْ الْوَرَى ... أوْفَى لَهُ مِنْ حَظِّهِ الْمِكْيَالَ
لهُ الصَّلاةُ و السَّلامُ تَتْرى ... ما شَرَى بَرْقٌ على طيبةَ أو أمِّ القُرى

---

كان صلَّى الله عليه و سلمَ فَرِيْداً في تواضُعِه...

لمْ تَعْرِفِ البَشَرِيَّةُ مِثْلَهُ أَحَدا،

هو الله كَمِّلَ أوصافَهُ ... و سَمَّاهُ بَيْنَ الْوَرَى أحْمَدا

لِكَمَالِ تَواضُعِهِ يَتَحَدَّثُ عَنْ رَعْيِهِ الْغَنَمَ عَلى أجْرٍ زَهِيْد، و السَّكِيْنَةُ و الوقارُ فِيْ أهْلِ الْغَنَم كما أخْبَر.
ثبَتَ عنْ جابِرٍ قال: كُنَّا مع النبيّ صلَّى الله عليه و سلمَ بِمَرِّ الظَّهْران و نَحْنُ نَجْنِي الْكَبَاث - و هو ثمرُ الأراك - فقال صلَّى الله عليه و سلم: "عليكم بالأسْوَدِ مِنْه" (و هو النَّاضِجُ منه)، قالَ: فقُلْنا: يا رسولَ الله كأنَّكَ رَعَيْتَ الغَنَم؟ ففي تَواضُعِ النُّبُوَّة بَيَّنَ أنَّهُ على أجزاءٍ مِنَ الدِّرْهَمِ رعاها و أنها مِهْنَةٌ ارتضاها الله لأنبيائه، فقال: "و هل مِنْ نَبِيٍّ إلا رعاها! لقد كنتُ أرعاها على قَراريطَ لأهل مَكَّة".

لمَّا تناهى فِيْ العُلُوِّ تواضُعاً ... للهِ زادَ اللهُ فِيْ إعْلائِهِ

رَعَى الْغَنَم، ثُمَّ بَعَثَهُ اللهُ فرَعَى و رَبَّى الأُمَم،

فبَنَى مَكانَ قُرَى الضَّلالِ مِنَ الهُدَى ... بَيْتاً عَلا قُلَلَ الجِبَالِ كَيَذبُلِ
يَبْنِيْ الرِّجَالَ و غَيْرُهُ يَبْنِيْ القُرى ... شَتَّانَ بَيْنَ قُرىً و بَيْنَ رِجَالِ

صلَّى عليهِ اللهُ ذو الجلالِ ... و صَحْبِهِ و حِزبِهِ و الآلِ

---

كان صلَّى الله عليه و سلمَ شامَةَ تواضُع و كوكبَ إخْبَات...

إنْ غارَ فهو من التَّواضُعِ مُنْجِدُ ... أو غَابَ فهو مِنَ المَهَابَةِ شاهِدُ

كانَ يَوْمَ بَنِيْ قُرَيْضَةَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِنْ لِيْف و عَلَيْهِ إكافٌ مِنْ لِيْف.

و لِكمالِ تواضُعِه لا يَأنَفُ مِنْ أنْ يُرْدِفَ على دابَّتِهِ أحَداً مَعَهُ إنْ أمْكَنَ و إلا تَنَاوَبَ مَعَهُمْ فِيْ الرُّكُوبِ عَلَيْها.

ثَبَتَ أنَّه صلَّى الله عليه و سلمَ رَكِبَ حِمَاراً يَوْماً عَلَيْهِ إكافٌ تحتَهُ قَطِيْفَةٌ فَدَكِيَّة و أرْدَفَ وراءَه أسامةَ ابن زيدٍ رَضِيَ اللهُ عنهُما و هو يعُودُ سعْدَ ابنَ عُبَادَة رَضِيَ اللهُ عنْه.

و أردَفَ صَفِيَّةَ يوماً على دابَّتِهِ و الناسُ تنظُرُ إليه. بلْ إنَّ صَفِيَّةَ مِنْ قبْلُ لمَّا أُسِرَتْ و اخْتارَتِ اللهَ و رسولَهُ و أسْلَمَتْ، أعْتَقَها و تزوَّجَها و جَعَلَ عِتْقَها مَهْرَها، ثُمَّ قَدَّمَ البَعِيْرَ لها لِتَرْكَبَ عندما أرادَ المدينة و قَدَّمَ فَخِذَهُ لِتَضَعَ رِجْلَها عليها، فأعْظَمَتْ ذلك، و أبَتْ أنْ تَضَعَ قَدَمَها، ثُمَّ وَضَعَتْ فَخِذها على فَخِذِهِ و رَكِبَتْ.

فيالَلَّه... إمرأةٌ كانت مملوكةً فأعتقها، و أبوها عدُوٌّ لدود يُؤلِّبُ القبائلَ عليه و كذلك عَمُّها، و زوجُها يَكِيْدُ أشَدَّ الكيد له، و مَعَ ذا فإسلامُها قَطَعَ صِلَتَها بأولئك و رَفَعَ قَدْرَها حتى وضع النبيُّ فَخِذَهُ لتتوصَّلَ بها إلى رُكُوبِ البَعِيْر، فِيْ خُلُقٍ زكَّاهُ الْعَلِيُّ الكبير،

وافَى كَمَا وافَى النَّسِيْم بِطِيْبِ أنْفَاسِ الْعَبِيْر

و ذا عبدُ الله ابنُ جعفر رضي الله عنهما يقول: كان النبيُّ صلَّى الله عليه و سلمَ إذا جاء مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ بصبيانِ أهلِ بيته، و جاء مِنْ سَفَرٍ فسُبِقَ بِيْ إليه فحملني بَيْنَ يديه ثُمَّ جِيءَ بأحَدِ ابنَيْ فاطمة حَسَنٍ أو حُسين فأرْدَفَهُ خَلْفَه، فدخلنا المدينة ثلاثةً على دابَّة.

هُمْ في جَبِينِ الدَّهْرِ أنْصَعُ صفحةٍ لَمْ تُبْلِها الأعْوامُ والآبادُ

و هاهو ابنُ مَسْعودٍ يقول: كُنَّا يَومَ بَدْرٍ كُلُّ ثلاثةٍ على بَعِيْرٍ لِقِلَّةِ الظَّهْر، و كان أبو لُبَابَةَ وعَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عنهما زمِيْلَيْ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه و سلمَ على دابَّتِه.

لَمْ يُفْرِدْ نفْسَهُ براحِلَةٍ مُسْتَقِلَّة، بلْ جَعَلَ نَفْسَهُ كبَقِيَّةِ أفْرادِ جَيْشِه. لِيُعَلِّمَنا أنَّ الكمَالَ لَيْسَ فيْ التَّرَفُّعِ و التَّعَالِيْ على المؤمنين، بلِ الكمالُ الحقيقيُّ فِيْ خَفْضِ الجناحِ للمؤمنين.

إنَّ كريمَ الأصْلِ كالغُصْنِ كُلَّما تَحَمَّلَ مِنْ خَيْرٍ تَواضَعَ و انْحَنى

ركِبَ النبيُّ صلَّى الله عليه و سلمَ عُقْبَتَه، و لمَّا أراد النُّزولَ لهما أقْبَلَ عَلِيٌّ و أبو لُبَابَةَ يُؤثِرانِهِ برُكوبِ الدَّابَّة، و هُمْ إنَّما يؤثِرُونَ أنْفُسَهَم لأنَّه أحَبُّ عليهم مِنْ أنْفُسِهِمْ، يقولون: نحنُ نمشيْ عنْكَ يا رسولَ الله. فبيَّنَ صلَّى الله عليه و سلمَ أنَّ الذي له حقُّ التَّمَيُّزِ هو الضعيفُ الذي لا يَقْوى على المَشْي و أنّ المَشْيَ فِيْ سبيل الله ثوابٌ لا يَزهَدُ فيه إلا محروم، فقال: "ما أنتُما بأقْوَى مِنِّيْ و ما أنا بأغْنَى عَنِ الأجْرِ منكما". ثُمَّ نزل يمشي فَوَدَّ كُلُّ راكبٍ أنْ لَوْ مَشَى لمَّا رأى رسولَ الله صلَّى الله عليه و سلمَ يمشي.

أكْرِمْ به مِنْ مُرسَلٍ و مُعَلِّمِ و له الشفاعةُ حِيْنَ نُحْشَرُ فِيْ الْوَرَى
فَتَحَ الإلهُ بِهِ قُلُوباً غُلِّقَتْ و أنَارَ أبْصَاراً و كَانَتْ لا تَرَى

أمَا إنَّه لم تَكَدْ تَرَى عينٌ أو تَسْمعُ أُذُنٌ بعظيمٍ يَقْبَلُ أنْ يُزاحِمَهُ أحَدٌ فِيْ راحِلَتِهِ مَهْمَا كانَتْ قَرابَتُهُ أوْ مَحَبَّتُهُ سِوَى رسولِ الله صلَّى الله عليه و سلم.

عَلا خُلُقُهُ الأخلاقَ قَدْراً كَمَا عَلَتْ جَمِيْعَ لَيَالِيْ الْعَامِ لَيْلَةُ قَدْرِهِ

صلَّى عليهِ اللهُ ذو الجلالِ و صَحْبِهِ و حِزبِهِ و الآلِ

---

كان صلَّـى الله عليه و سلمَ فِـيْ غـَايَـةِ التَّـواضـُعِ لِمَـنْ أرادَه.. و فِيْ حـُلـَّـةِ مَـهابَـة...

ما خالَـطَـهُ أحَدٌ إلا أحَـبَّـه و ما رآه إلا هابَـه،
مَـهـِيْـبٌ تَـرَى عِنْـدَ أعْـتَـابِـــــهِ عِـظـــامَ المُـلوكِ كبعْضِ الرَّقِـيْـقِ

ثَبَتَ فِيْ سُنَـنِ ابنِ مَـاجَـةَ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ رجلا أتى رسولَ الله صلَّـى الله عليه و سلمَ فأصابَـتْـهُ مِنْ هَيْـبَـتِـهِ رِعْدَة، ففي تواضـُعِ النُّـبوَّة يُـهدِّئُ رَوْعَه، و يُـسَـكِّـنُ نَـفْسَه، و يُـشْفِقُ عليه، و يُـبَـيِّـنُ له أنَّـهُ ابن امرأةٍ نَـشَـأتْ مُتواضِعةً فقيرةً خَـشِـنَـةَ العيش، تأكُـلُ اللحمَ المُـشَـقَّـقَ المُـمَـلَّـح المُـجَـفَّـفَ في الشمس، مُنْـتسِباً لها تواضـُعاً قائلا: "هَـوِّنْ عليك.. إنِّـي لَـسْتُ بملِـكٍ، إنما أنا ابنُ امرأةٍ مِنْ قُـرَيْش تأكُـلُ القَـدِيْـدْ".

ترقَّى بخفضِ النَّفْسِ حتى عَلا السَّما و حَـلَّ مكاناً لم يـكُـنْ حُـلَّ مِنْ قَـبْلُ

نَـعَمْ.. إنَّـهُ ابنُ آكِـلَـةِ القديدِ الأبـيَّـة، و مع ذا فهو هادي البشَـريَّـة، و إمامُ البَـريَّـة، و مُحْـيِـيْ الأمَّـة بشَـرْعِ الله ذي الفضل و المِـنَّـة.

قَـدْ أصْبحَتْ سُبُـلُ الدِّيْنِ الحَنيفِ به عَـوامِـــراً بَـعْدَ أنْ كانَـتْ أمَـاريْتا

عَـلَّـمَنا صلَّـى اللهُ عليه و سلمَ أنَّ العَظـَمَـةَ ليستْ فِيْ اغتنامِ الفُـرَصِ لتعميقِ الرَّهْـبَـة و الرُّعْـبِ فِيْ قلوبِ النَّـاسِ تَـكَـبُّـراً وتَـعَـالِـيا، و أنَّ العظمةَ الحقيقيةَ فِيْ رفعِ معنوياتِ الناس حتى يستطيعوا أنْ يَـبُـثُّـوا شُـجُـونَـهُـمْ و هُمومهم و يُـعَـبِّـروا عمَّـا يَخْـتَـلِـجُ في نفوسِـهِـمْ، آمنين مِنْ عُـقوبةٍ أوْ لَـومٍ يُـوجَّـهُ لهم. فأعْظَـمُ النَّـاسِ دَلالةً و نفعاً و هدايةً لهذه الأمَّـةِ هُـمْ أعظمهم تواضُـعا.

"فبِـهُـداهُمْ اقْـتَـدِه"

و هُـداهُم مَـــوْرِدٌ تَـــــرِدُه الْـهِـــيْمُ فَـتَـرْوى
و تَـهْوي إليه النُّـفُـوسُ فَـتَـجِـدُ عِنْـدَهُ ما تَـهْوى

و ماءُ زمْزمَ ما يَـنْـفَـكُّ ذا عَـبَقٍ يُـرْوِيْ الجُمُـوعَ إذا ما الماءُ قَدْ نَـفِدا

---

كان صلَّـى الله عليه و سلمَ سماءً مِنْ تَـواضـُع...

مُتَواضِعٌ و هو الرَّفِـيْـعُ مَقَـامُـهُ و وَضِـيعُ قَـومٍ ليسَ بـالمُـتَـواضِعِ

لتواضُـعِـهِ يَسْعَـى فِـيْ حَـاجَـاتِ الناسِ صَـغِـيْرِها و كبيرِها، و يحُـثُّ على ذلك فيقول: "و مَنْ مشى في حاجةِ أخيهِ حتى يُـثْـبِـتَـها له ثَـبَّـتَ الله قَـدَمَـهُ يَـوْمَ تَـزِلُّ الأقْـدام".

كان لأهل بيتٍ مِنَ الأنصار جَـمَـلٌ يَسْنُـونَ عليه فمنعَـهم ظَـهْـرَه، فجاؤوا إلى رسول الله صلَّـى الله عليه و سلمَ و قالوا: عَـطِـشَ الزرعُ النَّـخْـل و مَـنَـعَنا الجَـمَـلُ ظَـهْـرَه. فقام رسولُ الله صلَّـى الله عليه و سلمَ و مَـعَـه أصْحابُـه، فدخلَ

النبيُّ الحائطَ و الجَمَلُ في ناحيةٍ منه، فقالتِ الأنصار: يا نبيَّ الله، إنَّـه قد صار مِثْلَ الكَلْبِ الكَلِبِ و إنَّا نخافُ عليكَ صَوْلَتَـه، فقال: "ليس عليَّ مِنْ بأس". و لمَّا نظرَ الجملُ لرسول اللهِ صلَّى الله عليه و سلمَ أقْبَلَ نحوَهُ حتَّى خَرَّ ساجداً بيْنَ يَدَيْه، فأخَذَ بناصيتِهِ أَذَلَّ ما كان، حتى أدْخلَهُ في العَمَل.

و حالُ صاحِبِ الجَمَل:

أوْلَيْتَنِي كَرَماً و فضلاً زائدا ... و بَرَرْتَنِيْ حتى نَسِيْتُ الوالِدَ
أقْسَمْتُ لَوْ جَازَ السُّجُودُ لِمُنْعِمٍ ... ما كُنْتُ إلا رَاكِعاً لَكَ سَاجِدا

و هذا ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما يُخْبِرُ أنَّ رجلا مِنَ الأنصار كانَ له فَحْلانِ فاغْتَلَما – هاجا و اضْطَرَبا – ، فأدخلَهُما حائطاً و سَدَّ عليهما الباب ثُمَّ أتى النبيَّ صلَّى الله عليه و سلمَ و هو في نَفَرٍ مِنَ الأنصار، فقال: يا نبيَّ الله.. إنَّ لِيْ إليكَ حاجَة، قالَ: "حاجَتَك". قال: يا رسولَ الله، إنَّ لِيْ فحلَيْنِ اغْتَلَما فأدخلتُهُما حائطاً و سددتُ البابَ عليهما و أُحِبُّ أنْ تَدْعُوَ أنْ يُسَخِّرُهما الله لي. فلَمْ يدعُ له، بل قامَ يمشي له في حاجته قائلا لأصحابه: "قوموا معنا"، فذهب حتى أتى الحائط و قال: "افْتَحْ"، ففتحَ البابَ فإذا أحَدُ الفحْلَيْنِ قريبٌ من الباب، فلما رأى رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه و سلمَ سَجَد. فقالَ النبيُّ صلَّى الله عليه و سلمَ: "إئتِنِي بشيء أشُدَّ به رأسَه و أُمَكِّنْكَ منه"، فجاءَه بخِطامٍ فشدَّ به رأسَه و أمْكَنَهُ منه. ثُمَّ مشى إلى أقصى الحائطِ إلى الفَحْلِ الآخَرِ فلمَّا رآهُ وقَعَ له ساجدا، فقال للرَّجُل: "إئتني بخِطام"، فشدَّ به رأسَه و أمْكَنَهُ منه وقال: "إذهَبْ.. لا يَعْصِيانِكَ بعدَ اليوم". فلما رأى الصحابة ذلك قالوا: يا سولَ الله.. فحلانِ لا يعْقِلانِ سجدا لك، أفلا نسجُدُ لك؟! قال: "لا آمُرُ أحداً أنْ يسجُدَ لأحد، و لو أمَرْتُ أحداً أنْ يَسجُدَ لأحدٍ لأمَرْتُ المَرأةَ أنْ تَسْجُدَ لزوجِها، ذلك لِعِظَمِ حَقِّهِ عليها".

فَهَلْ رَأيْتَ مِثْلَهُ يا ذا الْحِجَا ... لِزِيْنَةِ الدُّنْيَا و مَحْوِ للدُّجَى

اللَّهُمَّ لا....

إنه الخُلُقُ العَظِيم الذي زكَّاهُ العَلِيُّ العظيم.

فلا تَسْتَنِنْ إلا بسُنَّةِ مُرْسَلٍ ... له دونَ كُلِّ العالَمِيْنَ الخَصَائِصُ

---

كَذا كان صلَّى الله عليه و سلم يسعى في نَفْعِ كُلِّ أحَد، و يقول: "مَنِ استطاعَ أنْ يَنْفَعَ أخاهُ فلْيَنْفَعْه".

الصبيُّ الصغيرُ حَظِيَ بِنَفْعِهِ يَوْمَ أشْفَقَ عليه أنْ يَنْشأ على تَفْريطٍ فِيْ الأمَانَة، فتواضعَ له و تلَطَّفَ في عُقُوبَتِهِ لِيُعَلِّمَهُ أداءَ الأمانة.

حدَّثَ النُّعْمَانُ ابنُ بشيرٍ رضي اللهُ عنه قال: أُهْدِيَ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه و سلمَ عِنَبٌ مِنَ الطَّائف، فدعاني فقال: "خُذْ هذا العُنْقُودَ فأبْلِغْهُ أمَّك"، فاشْتَهَى النُّعْمانُ العِنَبَ و هُوَ يومَئذٍ صغير فأكَلَهُ قَبْلَ أنْ يُبَلِّغَهُ أُمَّهُ، قال: و لمَّا كان بعْدَ ليالٍ قال ليْ صلَّى الله عليه و سلم: "ما فَعَلَ العُنْقُود؟ أأبْلَغْتَهُ أمَّك؟"، قُلتُ: لا. قال: فأخَذَ بأُذُنِي و قال: "يا غُدَرْ، يا غُدَرْ".

لَقَدْ أشْفَقَ على الصَّغِيْرِ أنْ يَكُونَ أمِيْناً أعْظَمَ مِنْ إشْفَاقِهِ عليه أنْ يُحْرَمَ مِنْ عُنْقُودٍ اشْتَهَاه، فانْتَفَعَ بذلكَ حَيَاتَه، و حَدَّثَ بِه. و صدق الله:

"حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم"

إذا شَـنَـفَ الآذانَ ذِكْـرُ خِلالِـــه يَـوَدُّ سِـوى الآذانِ لـو أنَّـهُ أُذْنُ

صَـلَّـى علـيـهِ بارئُ الْـعِـبـــادِ ما أمْطَـرَتْ سُـحْـبٌ و سَالَ وادي

---

و لِكمالِ تواضُـعِهِ صلَّـى الله عليه و سلمَ لا يَـسْتَـنْكِفُ أنْ يُـعَـلِّـمَ الجاهلَ ما لَـمْ يُحْسِنْ عَمَلَـه و هو في كامِلِ زينتِهِ ذاهبٌ إلى مسجده.

فعن أبيْ سعيدٍ الـخُـدْريِّ رضي الله عنه قال: مَـرَّ رسولُ الله صلَّـى الله عليه و سلمَ بغُـلامٍ يَـسْـلَـخُ شاةً لا يُـحْسِنُ سَلْـخَـها، فعَـزَّ عليه صلَّـى الله عليه و سلمَ أنْ يَـدَعَـه، فوقف يُـعَـلِّـمُـهُ قائلا: "تَـنَـحَّ حتى أُرِيَكَ فإنِّـيْ لا أراكَ تُـحْـسِنُ تَـسْـلَـخْ". فأدخَـلَ يدَهُ بيْنَ الجِـلْـدِ و اللَّـحْـمِ فدَحَسَ بها حتى تَـوارَتْ إلى الإبْـط، ثُـمَّ قال: "يا غُـلامُ.. هكذا فاسْـلَـخْ"، ثُـمَّ مضى إلى صلاتِهِ و لَـمْ يَـمَـسَّ ماءً.

خُـلُـقٌ عظيم، زكَّـاه العليُّ العظيم: "و إنَّـك لَـعَـلَـى خُـلُـقٍ عظيم".

و مَنْ فيْ كتاب اللهِ عُـظِّـمَ خُـلُـقُـــهُ فـكُـلُّ مَـدِيْـحٍ ماخَـلا ذاكَ نـــاقِصُ

صلَّـــى علـــيـهِ اللهُ ذو الـجـــــلالِ و صَـحْـــبِـهِ و حِـزبِـــــهِ و الآلِ

---

كان صلَّـى الله عليه و سلمَ عِـمادَ تـواضُـع و منارَةَ إخْـبات...

وَجَـدَ التَّـواضُـعَ قـدْ تهـدَّمَ رُكنُـهُ فَـــأقَـــامَ ساقِطَ رُكْـنِـهِ الْـمَـهْـدومِ

يقول البَرَاءُ رضيَ الله عنه: لمَّـا كان يومُ الأحزابِ و خَـنْـدَقَ رسولُ اللهِ صلَّـى الله عليه و سلم، رأيتُهُ يَـنْـقُـلُ تُـرابَ الخَـنْـدَقِ حتى وارَى التُّـرابُ جِـلْـدَةَ بَـطْـنِهِ و كان كَـثِـيْـرَ الشَّـعَـر. فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة و هو ينقلُ التُّـرابَ و يقول:

"اللَّـهُـمَّ لولا أنْـتَ ما اهْـتَـدَيْـنا و لا تَـصَـدَّقْـنا و لا صَـلَّـيْـنا
فـأنْـزِلَـنْ سَـكِـيْـنَـةً عَـلَـيـنـــا و ثَـبِّـتِ الأقْـدامَ إنْ لاقَـيْـــنا
إنَّ الأُلَـى هُمْ قَـدْ بَغَوْ علَـيـنـــا و إنْ أرَادُوا فِـتْـنَـةً أبَـيْـنـــا"

يَـمُـدُّ بآخِـرِها صوتَـه: "أبَـيْـنـــــا.. أبَـيْـنـــــا".

لَـمْ يَـجْـعَـلْ مِنْ نَـفْـسِهِ زعيماً دُنْـيَـوِيًّا يُـصْـدِرُ الأوامِرَ و النَّـواهي و هو في حِـصْـنٍ منيعٍ بمَعْـزِلٍ عنْ جُـنْدِه تَـحْـرُسُـهُ الحِراسَة، بل شارَكَـهُـم يَـعْـمَـلُ كما يَـعْـمَـلون، و هذا مَـثَـلٌ لتواضعِهِ و سلوكِهِ الذي لا يُـدانيهِ فيهِ أحَـدٌ من العالمين، لأنَّـهُ قُـدْوةٌ للعالمين.

صلَّـــى علـــيـهِ اللهُ ما غَـــرَّدَتْ وَرْقَـــاءُ خَـــطْـباءُ بأعْلَـى فَـنَـنِ

---

كان صلَّـى الله عليه و سلم...

جَـمَّ التـواضـُعِ و الدُّنيـا بسُـؤدَدِهِ تَـكَـادُ تَـهتَـزُّ مِنْ أطرافِها صَلَـفـا

يَـدْخُـلُ عامَ الفتحِ و تحتَ قِيادَتِـهِ عَشْـرةُ آلافِ مُـقاتِل – و هو الذي خَـرَجَ مُـسْـتَـخْفِياً قَـبْـلَ ثَـمَـانِ سِنِيْن ليس معَهُ سِوى أبي بكْـرٍ صاحِبِـه – . إنَّـهُ دخولٌ يستهويْ النفوسَ البشريَّـةَ أنْ تَـبْـلُـغَ ذِرْوَةَ الذُّرى في الكبرياء و الجَبَـروتِ و التَّـعالِيْ، و لكنَّـهُ صَاحِبُ الْـخُـلُـقِ العَظِيْم. يدخُـلُـها دخولَ خاشعٍ متواضعٍ قد طأطأَ رأسَـهُ و انحنى على رَحْـلِه، عُـثْـنُـونُـه يَكادُ يَـمَسُّ واسِطَـةَ رَحْـلِـهِ انخفاضاً و انكساراً و تواضعاً لِـرَبِّـه، مُستشعِراً مِـنَّـةَ الله عليه بالفتح و الظَّـفَـرِ و النَّـصْـرِ و المَـغْـفِرَة. لَـمْ يُـرْدِفْ وراءَهُ رجُلاً مِـنْ بَـنِيْ هاشِـمْ، و لا شريفاً مِنْ أشرافِ قُـرَيْش، وإنَّـما يُـرْدِفُ مَـوْلى ابنَ مَوالِـي – أعْـنِـيْ أسامَـةَ ابْنَ زيدٍ و ابْنَ أمِّ أيْـمَـنَ رضي اللهُ عنهم أجْـمَـعِين – لِـيُـعْـلِـنَ لِلْـمَـلإ: "إنَّ أكْـرَمَـكُـمْ عِـنْـدَ الله أتْـقَـاكُم". و لَـعلَّـهُ كان يستحضِرُ تلك المُـعاناةَ العُـظمى يومَ أُخْـرِجَ مُـطارداً مُـسْـتَـخْـفِيا تُـعْـلَـنُ الجوائزُ العُظمى لِـمَنْ يأتي به حيًّا أو ميِّـتا، ثُـمَّ يَرى حالَـهُ و قد أيَّـدَهُ الله فيزدادُ انحناءً و تواضُـعا، لِـيَـقْـضِـيَ اللهُ له أنْ يكونَ الأعْـلى و مَنِ اتَّـبَـعَـه،

"و ما تواضعَ أحَدٌ للهِ إلا رَفَـعَـه"

أبَـى اللهُ إلا رَفْـعَـهُ و عُـلُـوَّهُ و لَـيْسَ لِـمَا يُعْـلِـيْـهِ ذو العَرْشِ واضِـعُ

صَـلَّـى عـلـيـهِ بارئُ الْـعِـبـادِ ما أمْـطَـرَتْ سُـحْـبٌ و سَالَ وادي

---

كان صلَّـى الله عليه و سلم أعظَـمَ الناسِ تواضُـعا...

لا يُسْـتَـطاعَ لِـنَـزْرٍ مِـنْ تَـواضُـعِـهِ حَصْـرٌ فسِـيَّـانَ تـقْـصِـيْرٌ و تَـطويْـلُ

لَـمْ يَشْـهَـدِ العَـالَـمُ رَجُلاً أكْـثَـرَ تَواضُـعاً و رحمةً بالأطْـفالِ منه صلَّـى الله عليه و سلم.

وَضَـعَ صَبِـيًّا في حِجْرِهِ و هو يُـحَـنِّـكُـهُ فبالَ عَـلَـيْـه، فدعا بماءٍ فنَـضَـحَـهُ و كأنَّ شَـيْـئاً لَـمْ يَـكُـنْ.

لا يأْنَـفُ منهم، لا يترفَّـعُ عليهم، يُـباسِطُـهم، يُـقْـبِـلُ عليهم، يَـعْـطِفُ على يتيمِـهِـم، يَـمْـسَـحُ على رؤوسِـهِـم، يُـعَـلِّـمُـهُـم ما يَـنْـفَـعُـهم، يُـوَجِّـهُـهُـم حَسْبَ سِـنِّـهِـم، يَـضَـعُـهُـمْ على فَـخِـذِه لِـمَـحَـبَّـتِهِ لهم.

هُـوَ لِـلـطِّـفْـلِ أبٌ فِـيْ مَـهْـدِهِ عَـجَـباً مِنْ قَـلْـبِـهِ الْـفَـذِّ الكَـبير

يقولُ أنسٌ: كان رسول الله صلَّـى الله عليه و سلمَ يَـمُـرُّ على الصِّـبْـيَـانِ فيُـسَـلِّـمُ عليهم و هم يلعبون.

يُـدَرِّبُ الـصِّـبْـيَةَ على آداب الشريعة و يُعَـلِّـمُ الكبارَ التواضعَ و لِـيْـنَ الْـجَـانِـبِ و الرَّحْـمَـة. أنَـسُ مِنْ أولئك الـصِّـبْـيَـة.. قد تعمَّـقَـتْ فيه تلك التربية، فكان يومَ كَـبُـرَ يَـمُـرُّ على الـصِّـبْـيَة فَـيُـسَـلِّـمُ عليهم و يقول: كان رسولُ اللهِ صلَّـى الله عليه و سلمَ يَـفْـعَـلُـه.

خُلُـقٌ ورَّثَـنِـيْـهِ أحْمَـدُ فَـجَـرَى مِـلْءَ دِمـائي و شِـغَـافِـيْ
لَـمْ يُـغيِّـرْهُ علـى طُـوْلِ الْـمَدَى بَـطْـشُ جَـبَّـارٍ و لا كَـيْدُ ضِعـافِ

و لِتواضُعِه و رحمتِه بالأطفالِ يَـحْـمِلُـهُـم و يُـزَكِّـيْـهِـمْ بما فيهم. فعِنْـدَ أبيْ يَـعْلَـى بسَـنَـدٍ حَسَـنٍ عنْ عُـمَـرَ رضي الله عنه قال: رأيتُ الحَسَنَ و الحُسينَ على عاتِقَـيِ النبيِّ صلَّـى الله عليه و سلمَ فقلتُ: نِـعْـمَ الفَـرَسُ تحْتَـكُـما. فقال صلَّـى الله عليه و سلم: "و نِـعْـمَ الفارسانِ هُما".

لَـهُـمْ فِـيْ سُـوَيْـدَايَ مَـــنْـــزِلَـــةٌ تَـزُولُ الْـجِـبَـالُ و لَـيْـسَتْ تَـزُولُ

يُـداعِبُ الْـحَـسَـنَ فيُـخْـرِجُ لِـسانَـهُ له، فيرى الـصَّـبـيُّ حُـمْـرَةَ لِـسانِـهِ فيُـعْـجِـبُـهُ ذلك و يُـسْـرِعُ إليهِ و يُلْـقِيْ بنَـفْـسِهِ عليه.

و يخرُجُ إلى سُوقِ بني قَـيْـنُـقـاع يوماً فطافَ فيها ثُـمَّ رَجَعَ فاحْـتَـبَـى في المسجد و قال: "أيْـنَ لَـكَـاع؟"، فجاءَ الحَـسَـنُ فاشْـتَـدَّ حتى وَثَـبَ فِيْ حَـبْـوَتِـه، فأدْخَـلَ النبيُّ صلَّـى الله عليه و سـلـمَ فَـمَـهُ فِـيْ فَـمِـه ثُـمَّ قـال: "اللهمَّ إنِّـي أُحبُّـه فأَحِـبَّـه و أَحِـبَّ مَنْ يُـحِـبُّـه" ثلاثاً. و أبو هريرةَ يَـرقُـبُ الموقفَ و يقول: و الله ما رأيتُ الحَـسَـنَ بعدَها إلا فاضَـتْ عيناي.

فُؤادي إذا ما المُصطفى مَرَّ ذِكْـــرُهُ يَـرِفُّ رفِـيْـفَ الأُقْـحُوانِ مُنَـوِّرا
تَـذَكَّـرْتُـهُ فـارْفَضَّ صَـبْـرِيْ و قُـوَّتِي و لا بُـدَّ لِـلْـمُـشْـتـاق أنْ يَـتَـذكَّـرا

خَـرَجَ صلَّـى الله عليه و سلمَ مَـرَّةً يَـحْـمِلُ الـحَـسَـنَ و الحُـسَيْن هذا على عاتِقٍ و هذا على الآخَـرْ، يَـلْـثُـمُ هذا مَـرَّة و هذا مَـرَّة، حتى انتهى إلى أصْـحابه. فقال رجلٌ: كأنَّـكَ تُـحِـبُّـهُـما؟، فقال: "مَنْ أحَـبَّـهُما فقد أحَـبَّـني و مَنْ أبغَـضَـهُـما فقد أبغَـضَـنِي".

لَـقدْ سكَـنُـوا الْـقَـلبَ حتى غَدا مَـثَـاباً و لَـمْ يَـبْـرَحُـوْهُ و لَـنْ

أسامةُ رضي الله عنه صغيرٌ شديدُ السُّـمْـرَة، يَخْرُجُ مِنْ بيتِ رسولِ اللهِ صلَّـى الله عليه و سلمَ فيَـعْـثُـرُ على عَـتَـبَـةِ الباب و يُـشَـجُّ وجْـهُـه، و يتناثرُ الدَّم، و يسيْلُ اللُّعاب. و فِيْ رَحْـمَـةٍ و تواضعٍ جَـمٍّ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّـى الله عليه و سلمَ يمسَحُ الدَّمَ و اللُّـعابَ و يُـلاطِـفُ أسامَةَ و عائشةَ و يقولُ فِيْما رُوِي: "لقد أحْسَـنَ اللهُ بنا يا عائشةُ إذْ لَـمْ يَـكُـنْ أسامةُ جارِيةً، لو كانَ أسامةُ جاريةً لَـكَـسَـوتُـهُ و حَـلَّـيْـتُـهُ حتى أُنَـفِّـقَـه".

تِلكُـمْ شمائِلُـهُ غُـرٌّ مُـحَـجَّـلَـةٌ كـأنَّـها فِيْ اشْتِـهَـارٍ بُـلْـقُ أفْـراسِ

كان يَخْـطُـبُ يوماً فدخلَ الحَسَنُ و الحُسَينُ عليهما قميصان أحمرانِ يمشيانِ و يَـعْـثُـران، فَـقَـطَـعَ خُـطْـبَتَـه صلَّـى الله عليه و سلمَ و نزل إليهما و احتضنَـهُـما و صَعَدَ بهما المِـنْـبَـر فوضَعَهُما ثُـمَّ قال: "صدق الله.. إنَّـما أموالُـكُـم و أولادُكم فِتْـنَـة. رأيتُ ابْـنَـيَّ هذين يَـمْشيانِ و يَـعْـثُـران فَـلَـمْ أصْبِـرْ حتى قَـطَـعْتُ حَديثِـيْ و رَفَـعْـتُـهُما"

لهم فِيْ السُّوَيْدا هَزْمَةٌ مُسْتَدِيْمَةٌ تَـسِحُّ كَمَـاءِ المُـزْنِ إذْ هُوَ هَـامِـلُ

و يَخْـرُجُ صلَّـى الله عليه و سلمَ فِيْ مَـشْـهَـدٍ يَضِجُّ بالمشاعرِ الأبَـويَّـةِ النَّـبَـويَّـةِ الغامِرَة يَـحْـمِلُ أُمَـامَةَ ابْـنَـةَ ابْـنَـتِـهِ زيْـنَـب على عاتِـقِـه، ثُـمَّ قامَ يُـصَـلِّـيْ فكان إذا سجدَ وضعَـها و إذا قامَ حمَـلَـها.

يالَـلَـــه ما أروعَهُ مِنْ مشهَـدٍ في بيئةٍ كانتْ تُـبْـغِضُ الإناث إلى عهدٍ قريبٍ مِنْ ذلك الحـَدَث، "إذا بُـشِّـرَ أحدُهُم بالأنثى ظلَّ وجهُه مُسـْوَدا و هو كظيم، يتوارى مِنَ القوم". ولذا قالَ بعضُ الحُـكَـماء: "إنَّ ذلك التواضعَ و الرحمة لهذه الطِّـفلة الصغيرة بِـرٌّ تَـتَـسِعُ دائرتُـهُ لتَـشْـمُـلَ أمَّـها أينما كانت، و التي تعيشُ فرحةً عُظمى لمَكَـانَـةِ ابنتها من رسول الله صلَّـى الله عليه و سلمَ". فيالَـلَـــه.. لو سُـئلَـتْ أينَ ابنتُـها؟ فأجابت: حمَـلَـها رسولُ الله و خرج بها إلى الصلاة.

و لعَـلَّـهُ يُـقال: إنَّ رسولَ الله صلَّـى الله عليه و سلمَ بحَمْلِهِ أُمَامَةَ كانَ يُؤَدِّيْ عِبادَتَـيْـنِ معا، صلاتَـهُ لِـربِّـه و إحْسانَـهُ لِـبِـنْـتِـهِ و بِـنْـتِ بِـنْـتِـه. فذاكَ تواضُعٌ لا كالتواضُـع.. تَـزولُ الشَّـامِخاتُ و لا يزولُ.

و الشيء بالشيء يُـذكَـرْ.. صلى الإمامُ الشوكانيُّ بالناس فلما سجدَ سَقَـطَـتْ عِمامَتُـهُ فأخَـذها و رَدَّها، فأنكَـرَ عليه عَـوامٌّ و دَهْماءُ الناس و قالوا: تَـحْـمِلُ العِمَامَةَ و تَـرُدُّها و أنْـتَ في الصلاة!

حَـسْـبُـوا انْـتِـقَادَ اللَّـيْـثِ أمْراً هَيِّنا  و مِنَ الْـعَـويْـصِ تَـقَـنُّـصُ الآسَادِ

فقالَ قَـوْلَ البَـصِـيْـرِ العَـلاَّمَـة: "لَـحَـمْـلُ العِـمَـامَة أخَـفُّ مِـنْ حَـمْـلِ أُمَـامَـة".

إنَّ توقيرَ العالِمِ بِـعَـدَمِ التَّـسَـرُّعِ فِيْ الإنْـكارِ عليه أدَبٌ شَـرْعِـيّ، إذِ الظَّـنُّ فِيْ العالِـمِ أنْ لا يَـعْـمَـلَ إلا بدليلٍ شَـرْعِـيّ، و "لَـيْـسَ مِـنَّـا مَـنْ لا يَـعْـرِفْ لِـعَـالِـمِـنا حَـقَّـه".

فَـهُـمُ الـنُّـجُـومُ المُـهْـتَـدَى بِـضِـيَـائِـها  إنْ عَـمَّـتِ البَـلـوى و أرْعَـجَـتِ الفِـتَـن

و مِنْ مواقِفِ رحمتِه بالصغار و تواضُعِه لهم ما ثَـبَـتَ في البُخاريِّ مِنْ حديثِ أمِّ خالد بِـنْـتِ خالدِ ابنِ سَعِيدِ ابنِ العَاص قالت: أُتِـيَ النبيُّ صلَّـى الله عليه و سلمَ بثيابٍ فيها خَـمِـيْـصَةٌ سَـوْداءُ صَـغِـيْـرة، فقَـسَـمَ الثيابَ في أصحابِهِ ثُـمَّ قال في الخَـمِـيْـصَة: "مَنْ تَـرَوْنَ أنْ نَـكْـسُـوَ هذه؟"، فسكتوا و لم يُـرَشِّـحوا له أحداً. فلَـمْ يخْـتَـرْ لهذه الخميصةِ واحدةً مِنْ بناتِ بناتِـهِ أو قريباتِـه، لكنَّـهُ اختارها لابْـنَـةِ صحابيٍّ هاجَرَ الهِـجْـرتين لِـيُـكرمَ مَعَها أباها و أمَّها و أسْرَتَـها الذين هَجَرُوا الأهلَ و الدِّيارَ إلى أرضِ الحبَـشَـةِ البعيدة فارِّيْـنَ بِـدِيْـنِـهِـمْ مِنْ ظُـلْـمِ المشركين و أذاهُم. ثُـمَّ زادَ في التكريم أنْ دعا بالطفلة ليُـلْـبِـسَـها الخميصةَ بيَـدِهِ الشريفة، فقال: "إئتوني بأمِّ خالد بنتِ خالدِ ابنِ سَـعِـيْـد"، فجِـيءَ بها تُـحْـمَـلَ صُـحْـبَـةَ والدِها و عليها قَـمِـيصٌ أصْفَـرُ حتى وُضِـعَـتْ بَـيْـنَ يَـدَيْـه، فألبَـسَـها الخميصةَ بِـيَـدِه و قامَ ينظُـرُ إليها يُـداعبُـها و يمدحُ منظرَها و يَـمْـسَحُ على أعلامِ الخميصةِ قائلا بلُـغَـةِ الحَـبَـشَـة: "هذا سَنا.. هذا سَنا يا أمَّ خالد"، يَـعْـنِـيْ هِـيَ خميصةٌ حَـسَـنَـةٌ جميلة يا أمَّ خالد. و بعدَ أنْ ألبَسَها و احتفى بها و أخذَ يُحادثُ أصحابَه دارَتْ مِنْ خَـلْـفِ رسولِ الله و جعَـلَـتْ تلعبُ بخاتَـمِ الـنُّـبُوَّة بينَ كَـتِـفَـيْـه، فزبَرَها و زَجَرَها أبوها، فطلَـبَ مِنْـهُ صلَّـى الله عليه و سلمَ أنْ يَدَعَها تَـمْـضِـيْ فيما هِيَ فيه و دَعَا لَـها مَعَ ذلك بطُـولِ البَـقَـاءِ فقال صلَّـى الله عليه و سلمَ: "دَعْها.. أبْـلِـيْ و أخْـلِـقِـيْ، ثُـمَّ أبْـلِـيْ و أخْـلِـقِـيْ، ثُـمَّ أبْـلِـيْ و أخْـلِـقِـيْ". فطالَ عُمُرُها و تزوَّجَتْ و رُزِقَـتْ وَلَـداً سَـمَّـتْـهُ خالدا، و كانتْ مِنْ أواخِرِ الصَّحابِـيَّاتِ وفاةً ببَرَكَـةِ دُعاءِ رسولِ اللهِ لها.

تِـلْـكُـمْ مَـعْـشَـرَ الإخْـوة صُوَرٌ مِنْ عِـنَـايَـةِ رسولِ اللهِ بالصغار ذكوراً و إناثا، فِـعْـلاً و قولاً و دُعاءً.

فما وَطِـئَ الحَصَى مِثْـلُ المُـقَـفَّـى  و لا لَـبِـسَ النِّـعَـالَ و لا احْـتَـذاها

قدِ اطمأنَّ الأطفالُ إلى مَـعْـشَـره، و أمِـنوا تأنِـيْـبَـهُ فضلاً عنْ عقوبته...

فكان يَضْطَّـجِـعُ فيأتيْ الحَسَنُ و الحُسَيْن يَـلْـعبونَ على بَـطْـنِـه، بلِ اتَّـخَـذوا مِنْ ظَـهْـرِهِ الكريم راحِـلَـةً يَـمْـتَـطُـونَـها على عادةِ الأطفالِ فِيْ اللَّـعِـبِ و المِـزاح و رُبَّما كانَ ذلك فِيْ الصَّـلاةِ و المُـسْـلِـمُونَ خَـلْـفَـه.

أخرجَ النَّسائيُّ و الحاكِمُ و صحَّحَهُ و وافقه الذهَبِـيّ مِنْ حديثِ شَـدَّادٍ رضيَ الله عنه قال: خرج علينا رسولُ الله صلَّـى الله عليه و سلمَ فِيْ إحدى صلاتَـيِ العَـشِـيّ و هو حامِلٌ حَسَناً أو حُـسَـينا، فتَـقَـدَّمَ فَـوَضَـعَـهُ عِـنْـدَ قَـدَمِهِ اليُـمْـنَـى ثُـمَّ كَـبَّـرَ للصَّلاة، فَـسَـجَـدَ بَـيْـنَ ظَـهْـرانَـيْ صَلاتِهِ سَـجْـدَةً أطَـالَـها حتى ظَـنَـنَّا أنْ قد حَدَثَ شيء. قال شدّادُ: فرفعتُ رأسِيْ مِنْ بينِ الناس فإذا الصبيُّ على ظَـهْـرِ رسولِ اللهِ صلَّـى الله عليه و سلمَ و هو ساجد، فرجَـعتُ إلى سُجودي. فلمَّا قَـضَى رسولُ الله صلَّـى الله عليه و سلمَ صلاتَـه قال الناسُ: يا رسولَ الله.. إنكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَـهْـرانِيْ صلاتِكَ هذه سجدةً أطَـلْـتَـها حتى ظَـنَـنَّـا أنْ قد حَدَثَ أمْرٌ أو أنَّـهُ يُوحَى إليك، فقال صلَّـى الله عليه و سلمَ: "كُـلُّ ذلك لَـمْ يَـكُـنْ، و لـكـنَّ ابْـنِـيْ هذا ارْتَـحَـلَـنِـيْ فكَـرِهْتُ أنْ أُعْـجِـلَـهُ حتى يَـقْـضِـيَ حاجَتَـه".

واللهِ و باللهِ و تاللهِ لَـئِـنْ عَـجَـزَتِ الأقلام و كلَّـتِ القَـرائحُ عن تصويرِ أعلى درجاتِ التواضُعِ للأطفال و الرحمةِ بهم فإنَّ رسول الله صلَّـى الله عليه و سلمَ جَـسَّـدَهُ بما لا تحمِلُـهُ الألفاظُ مهما أوتِيَـتْ مِنْ فصاحةٍ و بيان.

فـلَـو نَـطَـقَ (الْـخَـلِيلُ) لَـقَالَ هَذِي مَـعَـانٍ مَـا رَأتْـهـا قَـطُّ عَـيْـنِـيْ

---

هذا هو رسولُ الله...

تواضُعٌ فِيْ غَـيْـرِ تَـصَـنُّـعٍ و لا رياء، حَـالُـهُ مَعَ المستضعفين يَومَ كانَ يَـدْعُـو وحيداً و السُّفهاءُ يَسُومُونَـهُ الأذى هُـوَ حالُـهُ بعدَ نَـصْـرِهِ و دخولِ الناس في دِيْـنِ الله أفْـواجا. و لَـوْ تَـتَـبَّـعْنا كلَّ ما يَـدُلُّ على تواضُعِه لطالَ بنا المَقام، فكلُّ سلوكٍ له كان مَظْـهراً مِنْ مظاهر تواضعِه.

قد أظْـهَـرَ اللهُ فِـيْ الـدُّنْـيَـا خَـلائِـقَـهُ لِـلإنْـسِ و الْـجانِ بالمَعْـنَـى و بالْـكَـلِـمِ

فاشْـرَبْ فهذا زُلالٌ بَـارِدٌ صافي...

و ارْغَـبْ إلى ربِّـكَ الأعْـلى ليَـجْـعَـلَـنا مِـمَّـنْ على النَّـهْـجِ نهْجِ المُصْطفَى دَرَجَ
نَـهْجِ الذي أنزلَ اللهُ الكتابَ هُدًى لـنا عَـلَـيْـهِ و لَـمْ يَـجْـعَـلْ لَـهُ عِـوجـا

فصَـلِّ يـا ربِّ على خيْرِ الْـوَرَى ما هَـتَـفَـتْ قُـمْـرِيَّـةٌ عَـلى الذُّرَى
و الآلِ و الأزواج و الأصْـحَـابِ و الـتَّـابِـعِـيْـنَ مِـنْ أُوْلِـيْ الألْـبَـابِ

---

معشرَ الإخْـوة...

بهذا الخُـلُـقِ سجَّـلَ أتباع محمد صلَّـى الله عليه و سلمَ صفحاتٍ مُضيئات،

تُشِيْعُ نشاطاً فِيْ قُوى الشَّيخ و الفتَى و يُـغْـذى عَـلَـيْـها الطِّـفْـلُ مِـنَّـا و يُرْضَعُ

هذا هو (الصِّـدِّيقُ) رضي الله عنه في جلالَـتِه، كانَ يأتيه جَوارِي الحَيِّ بأغنامهن فيَـحْـلِـبُها لهُنّ، و هو خليفةُ المسلمين.

و يُودِّع جيشَـه ماشِـياً و يقول: "و ما عَـلَـيَّ أنْ أُغَـبِّـرَ قَـدَمَيَّ فِيْ سَبِـيْـلِ رَبِّ الْـعالَـمِين"، و هو مَنْ رَفَـعَ فِيْ وُجُوهِ المادِحِين: "اللَّـهُـمَّ اجْعَـلْـنِـي خيرا مِنْ ما يَـظُـنُّـون".

---

و يَخْرُجُ (أميرُ المؤمنين عمرُ) رضي الله عنه فيَمُرُّ بمكانٍ كانَ يَرْعى فيهِ الْغَنَمَ في الجاهِلِيَّةِ فيقول: "لا إله إلا الله، كنتُ أرْعَى الغَنَمَ بِهذا الْوَادِيْ و أُتْعَبْ، و إذا قَصَّرْتُ أُضْرَبْ، و قد أمْسَيْتُ ليس بيني و بين اللهِ مِنْ أحَد".

و يُرَدِّد: "يا ابنَ الخطَّاب، كُنْتَ وَضِيْعاً فرفعك الله، و ضالا فهداك الله، و ذليلا فأعَزَّك الله، ثُمَّ حَمَلَكَ على رِقابِ الناس فماذا تَقُولُ لِرَبِّكَ غَداً إذا أتَيْتَه؟"، ثُمَّ يَنْدَفِعُ في البُكاء.

و يقول لابنه و هو يودِّعُ الدنيا شهيدا: "ضَعْ خَدِّي على الأرض لا أُمَّ لك.. وَيْلِيْ إنْ لَمْ يَرْحمني رَبِّي".

---

و (عُثمانُ) رضي الله عنه يَخْطُبُ يومَ الجُمُعَةِ و عليه ثوبٌ بأربعةِ دراهم، و هو أمير المؤمنين.

و ينامُ في المسجدِ فيقومُ و أثَرُ الْحَصى فِيْ جَنْبِهِ، و هو تاجِرُ المسلمين.

و يَخْدِمُ نَفْسَهُ بالليل و لا يُوقِظُ الخَدَمَ و يقول: "الليلُ لهم فيه يستريحون".

---

و يشتري (عَلِيٌّ) رضي الله عنه الطعامَ و يَحْمِلُهُ بنَفْسٍ لا تَعْرفُ الكِبْر و لا تأنفُ مِنْ حَمْلِ المَتاع و يقول: "أبو العِيالِ أحَقُّ أنْ يَحْمِلْ"، و هو مَنْ أحَبَّهُ ربُّ العالمين.

---

و (ابنُ عَوْفٍ) رضي الله عنه مِنْ تواضعه في زيِّهِ لا يُعْرَفُ مِنْ بينِ عَبيده، و هو مِنَ العَشَرَةِ المُبَشَّرين.

---

و (سَلْمانُ) يَلْبَسُ الجُبَّةَ خَشِنَةً و يقول لِمَنْ لامَهُ: "إنما أنا عَبْد، ألْبَسُ كما يَلْبَسُ العَبْد، فإذا عَتُقْتُ لَبِسْتُ ثياباً لا تَبْلَى حَواشِيْها فِيْ جَنَّاتٍ و عُيون "

---

و لمَّا عُزِلَ (سيفُ اللهِ خالِدُ) قال: "و الله لَوْ وَلَّى عَلَيَّ أميرُ المؤمنين امرأةً أو مَمْلوكا لسَمِعْتُ له و أطَعْت، مادام يقودني بكتاب ربِّ العالمين".

---

و (عَمَّارُ) يشتري عَلَفاً و يَحْمِلُه على ظَهْرِهِ و هو أميرُ الكوفة، يحدوهُ: "صبراً آلَ ياسِرْ، فإنَّ موعدَكم الجَنَّة".

---

و (عمرُ ابنُ عَبْدِ العزيز) ينتظرُ ثيابَه حتى تَـجِـفَّ، و هو أمِـيْـرُ المُـؤمِـنِـيْـن.

و لمَّـا قِـيْـلَ له ندفِـنُـكَ إذا مِتَّ مَعَ رسولِ الله و صاحِبَيهِ، قال: "و الله لأنْ ألْـقى اللهَ بكل ذنـْـبٍ سِوى الشِّـرْك أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أرى نفسي أهلاً لتلك المَنـْزِلَـة"، و العاقبة للمُتَّـقِين.

---

و (أحمدُ) عليه رحمة رب العالمين كثيراً ما يقول: "نحنُ قومٌ مساكين".

و لـمَّـا قيل له: ما أكثرَ الدَّاعين لك.. تَـغَـرْغَـرَتْ عيناه و قال: "أخافُ أنْ يكونَ هذا استدراجاً مِنْ ربِّ العالمين".

---

و يأخذُ (الفُـضَـيلُ) بِـيَـدِ (سُـفيانَ ابنِ عُـيَـيْـنَـة) و يقول: "إنْ كنتَ تظـُنُّ أنَّـهُ بَـقِـيَ على وجهِ الأرضِ شرٌّ منِّـي و منك فبئسَ ما تظـُنّ".

---

و (إبراهيم النَّـخَـعيُّ) كان يُـهابُ هيبةَ الأمير و يقولُ مع ذا تواضُعاً: "إنَّ زماناً صِرْتُ فيه فَـقِـيْهَ الكوفةِ لزمانُ سوء".

---

و كان (ابنُ القَـيِّـمِ) رحِمَهُ الله يقولُ عنْ نَـفْـسِه:

"بُـنَـيُّ أبي بكرٍ كثـــيـــرٌ ذنوبُـــهُ فليس على مَـنْ نَـالَ مِنْ عِرْضِهِ إثْـمُ
بُـنَـيُّ أبي بكرٍ جَـهُـولٌ بِـنَـفْـسِـهِ جَـهُـولٌ بأمْـرِ الله أنَّـى لَـهُ الْـعِـلْـمُ
بُـنَـيُّ أبي بكرٍ غَـدَا مُـتَـصَـــدِّراً يُـعَـلِّـمُ عِـلْـماً و هُوَ ليسَ لهُ عِـلْـمُ"

---

و يأتي (ابنُ المبارك) على سِقَايةٍ و الناسُ يشربون فدنا لِيَشْـرَبَ و لَـمْ يعرفْـهُ الناسُ فدفَـعُـوه، فلمَّـا خرجَ قال: "ما العيشُ إلا هكذا حَـيْـثُ لَـمْ نُـعْـرَفْ و لَـمْ نُـوَقَّـرْ".

---

و نُـقِـلَ عن الشيخ (محمدِ ابنِ إبراهيم) رحمةُ الله عليه أنه ما قال عنْ نفسه يوماً الشيخ أو المُـفْـتِـي، إلا أنَّـهُ كلَّـمَ عامِلاً في فندقٍ يوماً للحجزِ لأحَـدِ الضيوف فقال العاملُ: مَنْ؟ قال: "محمد ابن ابراهيم"، فما عرَفَـه، فقالَ: "آلُ الشَّـيْـخ"، فما عرفه، فقال: "المُـفْـتِـيْ"، فعَرَفَـه. ثُـمَّ قالَ رحمه الله: "هداهُ الله، ألْـزَمَـنا أنْ نقولَ هذه الكلِـمَـة". و يا لَـلَّـه ما أجْـمَـلَـها مِنْ كَـلِـمَـة.

---

و تأخَّرَ السَّائقُ يوماً على الشيخ (ابنِ باز) لتَعَطُّلِ سيَّارتِه الخاصَّة، فطَلَبَ مِنْ أحَدِ العَامِلِيْنَ عِنْدَهُ أنْ يأتِيَ بسيارة فاعتذر العامل بأنَّ سيَّارتَه لا تليقُ بمَقام الشيخ، فداعَبَهُ الشيخُ قائلاً: "سيَّارتُكْ ما تَمشيْ؟!"، و ذا تواضُعٌ يَشْفِيْ.
و نُقِلَ إليه اقتراحٌ مَفَادُهُ أنَّ جُلُوسَكَ يا شيخُ على الطَّعامِ يُشاركُ فيه عَرَبٌ و عَجَمٌ و فُقَراءُ و مِنْ دَهْمَاءِ النَّاس، فلو جَعَلْتَ مَجْلِسَ طعامٍ خاصاً بك و جَعَلْتَ لهم مجلساً آخر. فتغيَّرَ وجْهُ الشيخِ و قال: "مِسْكِيْنٌ صاحبُ هذا الاقتراح.. لَمْ يتلذذ بالجلوس مع المساكينِ و الأكلِ مع الفقراء، سأستمِرُّ على هذا و ليس عندي خصوصيَّة. مَنِ استطاع أنْ يجلسَ مَعِيْ أنا و هؤلاء الفقراء فلْيَجلسْ، و الذي تأبَى نفسُه و لا يُعْجِبُه فليس مُجْبَرا".

أَلْقَى التَّواضُعَ فِيْ أحْشَائِهِ نِقَةً[1] فَصَدَّ عَنْ كِبْرياءِ النَّفْسِ و الصَّادِي[2]

---

و الشيخُ (ابن عُثَيْمِيْن) عليه رحمةُ ربِّ العالمين في طريقه لمسجده يقف لأحد طلبته و قد نَزَلَ طِفْلاهُ الصَّغيران يُسَلِّمانِ على الشيخ، فأخذ بِيَدِ أحَدِ الطفلين و أخرَجَ القَلَمَ و رَسَمَ في يَدِهِ ساعةً و الطفل في غاية السرور، ثُمَّ أخَذ يَدَ الطفل الآخَرِ و رسَمَ له مِثْلَها و الناسُ في المسجد ينتظرون.

فلا يَسْأمُونَ اصْطِناعَ الجَمِيْل و لا يَعْتَرِيْهِمْ عَلَيْهِ النَّدَم

---

و الشيخُ (الألبانيُّ) رحِمَهُ الله لمَّا حُدِّثَ أنَّهُ رُئيَ في المنام يمشي خَلْفَ رسول الله صلى اللهُ عليهِ و سلَّمَ أجْهَشَ و قال: "اللَّهُمَّ لا تؤاخِذني بما يقولون، و اجعلني خيراً مِنْ ما يَظُنُّون".

---

و لمَّا رأى بعضُ أهْلِ الأهْواءِ رؤيا لأحِدِ عُلَماءِ شمالِ إفريقيا أنَّهُ كعُثمانَ ابنِ عفَّانَ رضي الله عنه أخْبَرَه – طمَعاً في أنْ ينضمَّ لحِزْبِه – فقال العالِمُ: "إنني لَمْ أبْلُغْ منزلةَ الغُبارِ الذي ثارَ فيْ أنْفِ فرسِ عُثمانَ في إحدى غزواتِهِ مع رسول الله صلى اللهُ عليهِ و سلَّمَ و لا جوابَ لكم عِنْدي"

---

تواضَعُوا و لِغَيْرِ اللهِ ما سَجَدوا و لا اسْتَكانُوا و لا مَدُّوا يَداً لِيَدِ

قرأتُ تاريخَهم يوماً فَرَفَّ فَمِي شوقاً لِتَقبيلِ ذاكَ العِطْرِ فِيْ الكُتُبِ
يَفِيْضُ فِيْ كُلِّ قَلْبٍ مِنْ تَواضُعِهِم روحٌ تُعِيْدُ شَبَابَ النَّفْسِ فِيْ الأُهُبِ

سِيْرُوا كما سارُوا لِتَجْنُوا ما جَنَوا و اقْفُوا خُطى الأخْيارِ حَيْثُ تَيَمَّمُوا

---

[1] - بمعنى انتقاه من بين الأخلاق و كأن التواضعَ أجودها، و الله أعلم
[2] - كناية عن شدة عطش النفس و حبها للتكبر، و الله أعلم

أيُّـها الجِـيْـل...

لحنُ الـــلِّـسَـانِ مَعِـيْـبُ و اللَّـحْـنُ بالْـقَـلْـبِ ذنْـبُ
مِنْ أقْـبَـحِ اللَّحْنِ عِنْـدِي كِـبْـرٌ و تِـيْـــهٌ و عُـــجْـبُ

التَّـواضُـعَ التَّـواضُـع..

تَـواضُعاً فِيْ تَـقَـبُّـلِ وَحْيِ اللهِ لا على أنَّـهُ آصارٌ و أغْـلال، بل تَـقَـبُّـلِ الفَـرحِ الجَذلانِ المُسْتَـسْلِـمِ المُـنْـقَـادِ المُـحِـبِّ المُـعَـظِّـمِ للهِ رَبِّ العالمين، المُـوْقِـنِ فِـيْ أنَّ الفَـلاحَ فِيْ ذلكَ يَـقِـيْـناً أعْـظَـمَ مِنْ يَـقِـيْـنِهِ فِيْ أنَّ الماءَ و الهَـواءَ مِنْ لَـوازِمِ الحَياة.

و حالُـكَ حالُ (مُـصْـعَـبِ ابنِ الزُّبَـيْـر) أميرِ العِراقَـين لمَّـا هَـمَّ برَجُـلٍ مِنَ الأنصارِ ليُـؤدِّبَـهُ و قد بَـلَـغَـهُ عنه شيء، فدخل عليه أنسٌ رضيَ الله عنه و قال: إنِّـيْ سمعتُ رسولَ اللهِ يقول: "اسْتَـوْصُـوا بالأنصار خيرا، فقد أدَّوا الذي عليهم و بَـقِـيَ الذي لهم، مَنْ وَلِـيَ أمْـراً يَـضُـرُّ فِيْـهِ أحَداً أوْ يَـنْـفَـعَـهُ فلْـيَـقْـبَـلْ مِنْ مُـحْـسِـنِـهِـمْ و لْـيَـتَـجَـاوزْ عَنْ مُسِـيْـئِـهِـمْ". فألْـقَـى مُصْعَبُ بنفْـسِهِ مِنْ على سريره و ألْـزَقَ خَـدَّهُ بالْـبِـسَـاطِ و هُوَ يقول: "أمْـرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه و سلَّـمَ على الرَّأسِ و الْـعَـيْن".

فلَـوْ قَـالَ لِـيْ مُـتْ مُـتُّ سَـمْـعاً و طاعَةً و قُـلْـتُ لِداعِـيْ المَوتِ أهْـلاً و مَرْحَـبا

---

أيُّـها الجِـيْـل...

إنَّ الْـمَـراتِـبَ بالـتَّـواضُـعِ، و العُـلا لَـــيْسَـتْ بِـمَـخْـرَقَـــةٍ ولا بِـسِـفَـاهِ

التَّـواضُـعَ التَّـواضُـع..

تواضعاً فِيْ قُـبُـولِ الحَقِّ مِـنْ مَـنْ جاءَ بِـهِ صغيراً أو كبيرا، ولِـيًّا أو عَدُوًّا، حبيباً أو بَغِيْضاً، فالحقُّ أحـقُّ أنْ يُـتَّـبَـع، و لُـزومُ الحقِّ يُـنْـزِلُـكَ مَـنازِلَ أهْلِ الحقّ يومَ لا يُـقضى إلا بالحقّ، و مُراجَعَةُ الحقِّ خَـيْـرٌ مِنَ التَّـمادي فِيْ غَـيْـرِ الحقّ.

في السِّيَرِ للذهَـبِـيّ أنَّ عبد الواحدِ ابنَ زيادٍ قال: لقيتُ (زُفَـرَ ابنَ الهُـذَيْـل) فقُـلتُ: صِرْتُـمْ حَـدِيْـثاً في الناسِ و ضُـحَـكَـة. قالَ و ما ذاك؟! قلتُ: تقولون ادرؤوا الحدودَ بالشبهات ثُـمَّ جئتم إلى أعظمِ الحدودِ فقُـلْـتُـمْ تُـقامُ بالشُّـبْـهَة. قالَ: و ما هو؟! قلتُ: قال رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه و سلَّـمَ: "لا يُـقْـتَـلُ مُسْلِمٌ بكافر" فقُـلتُم: يُـقْـتَـلُ به – يعني بالذِّمِّـيّ – قالَ: فإنِّـي أُشْـهِـدُكَ السَّـاعةَ أنِّـيْ قدْ رجَعْتُ عنه. قال الذهبيُّ رحمه الله: هكذا يكونُ العالِمُ وقَّـافاً مَعَ النُّـصُوص.

و تَـواضُـعُ العُلَـماءِ يَشْـفِـيْ مِثْـلَـما يُـضْـنِـيْ و يُـمْرِضُ كِـبْرُ كُـلِّ جَـهُـولِ

و يقول (أبو يوسفَ القاضِي) صاحبُ أبي حنيفة: قدِمْتُ المدينةَ فسألتُ عن الصَّاع فقالوا: صاعُـنا صاعُ رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه و سلَّـمَ، فقلتُ: ما حُـجَّـتُـكُـم؟

– كُـلُّ قولٍ لَـمْ يُـؤيَّدْ بدليلِ فادِّعاءٌ و افْـتِراءٌ و هُراءُ –

قالوا: غداً نأتيكَ به، فلمَّـا أصبحتُ أتاني نحوُ خمسينَ شيخاً مِنْ أبناءِ المهاجرين و الأنصار، مَعَ كُـلِّ رَجُلٍ منهم صاعٌ تحتَ ردائه، كُـلٌّ منهم يُـخْـبِـرُ عَنْ أبيهِ و أهلِ بيتِهِ أنَّ هذا صاعُ رسولِ صلَّى اللهُ عليه و سلَّـمَ. فرأيتُ أمراً قَـويًّا فتركتُ قولَ أبيْ حنيفةَ في الصَّـاع و أخذتُ بقَـولِ أهلِ المَـدِينة. فزادَهُ الحقُّ رِفْـعَـة.

و مَنْ زادَ في خفضِ الجَنـاحِ بَنانَـةً  تَـزايدَ باعاً فِـيْ الوَجَـاهَـةِ و الخَـطَـرْ

هذا أبو مَـعْـمَـرٍ التميميّ يقولُ: كان (شُـعْـبَةُ) يَحْقِرُنِـيْ إذا ذكَـرْتُ شيئاً، فحَدَّثَ يوماً عَنِ ابنِ عَوْن عنِ ابنِ سِيْـرِيْـن أنَّ كعبَ ابنَ مالكٍ رضيَ الله عنه قال:

قَـضَـيْـنا مِنْ تِـهَـامَةَ كُـلَّ ريْـــبٍ  و خَـيْـبَـرَ ثُـمَّ أغْـمَـدْنا السُّـيُـوفَ
نُـخَـيِّـرُها و لَـو نَـطَـقَـتْ لَـقالَـتْ  قَـــواطِـعُـهُـنَّ دوساً أو ثَـقِـيْـفَ
و نَـنْـتَـزِعُ الْـعَرُوسَ عَـروسَ وُجٍّ  و تُـصْـبِـحُ دارُكُمْ مِـنْـكُـم خُـلُـوفَ

فقلتُ: و أيُّ عروسٍ كانت ثَـمَّ يا إمام؟ قالَ: فما هي؟ قلتُ:

و نَـنْـتَـزِعُ الْـعَرُو**شَ** عَـرو**شَ** وُجٍّ

مِنْ قول الله: "خاويةٌ على عروشِـها". قالَ أبو مَـعْـمَر: فكانَ بعدَ ذلكَ يُـكْـرِمُـني شُـعْـبَةُ و يَرْفَـعُ مجلِـسِي.

و شِعارُه.. أصَـبْـتَ و أخْـطَـأتُ و فوقَ كُـلِّ ذي عِـلْـمٍ عَـلِـيْم.

لأنْ أكونَ ذنَـباً في الحقِّ خيرٌ مِنْ أنْ أكونَ رأساً في الباطِـل

فيا أيُّـها الجِـيْـل...

مَنْ جاء بحقٍّ فاقبلهُ و لو كان بعيداً بغيضا، و مَنْ جاء بباطلٍ فاردُدْهُ و إنْ كان قريباً حبيبا، و مَنْ جاءَ بحقٍّ و باطلٍ فرُدَّ الباطلَ و اقْـبَـلِ الحقَّ.. فالكِـبْـرُ بَطَـرُ الحقّ.

و الحَـقُّ مُـرٌّ فـامْـضَـغُـوهُ فإنَّـما  تَـحْـلُـــو الحياةُ إذا أُسِـيْـغَ العَـلْـقَـمُ

---

أيُّـها الجِـيْـل...

أرْفَـعُ النَّـــاسِ قَـدْراً مَنْ لا يَرى قَـدْرَه

فاعرِفْ قَـدْرَ نفسِكْ و لا تَـضَـعْـها في غيرِ موضِعِها، و إذا خرجتَ مِنْ بيتِكَ فلا يَـقَـعَنَّ بصرُك على مسلمٍ إلا رأيتَ أنَّـهُ قد يكونُ خيراً منك.

لا تجعَـلْ مِنْ نفسِكَ نِـدًّا لجَهابِـذةِ العلماء و تقولُ: هُـمْ رجَال و نحنُ رجَـال. و قُـلْ هُمْ نُـسُورٌ فِيْ السَّـحاب و نحنُ نَـحْبُـوا على التُّـراب.

لا يكُـنْ هِـجِّـيْـراكَ أنْ تـقولَ بقول المُـتعالِـمِ المُـتَـعالِي: أرى، و أنا، و قلتُ، و عِندي.

فيَـصُـخَّ مَسْـمَـعَكَ زيدٌ أو هِـنْـدُ بِـ: مَـنْ أنْـتُـمُ حَـتى يكونَ لَـكُـمْ عِـنْـدُ!

تواضعْ لأقرانِكَ و لا تستعْلِ عليهم، و لا تفرحْ بالنَّيْـلِ منهم و الحَـطِّ مِنْ قَـدْرِهِم، و عيبِـهِمْ بما ليسَ فِيْـهِـمْ، و إظهارِ ذلك فِيْ مظهرِ النَّـصيحةِ و التَّـقْـويمِ لهم. و لا تَـتَـجاهلْ نَـفْـعَـهُم، فإنْ لَـمْ تَـرْضَ منهم بعضَ قولٍ فـقُـلْ حَـسْبُـهُـمْ أنَّـهُـمْ يَـدْعُـونَ إلى الله و يُـعَـلِّـمونَ الناسَ الخير.

و مَنْ ذا الذي تُـرْضى سجاياهُ كُـلُّـهـــا كَـفـى الْـمَـرْءَ نُـبْـلاً أنْ تُـعَـدَّ مَعايِـبُـه

و كَـمْ مُـبْـصِرٍ فِيْ عَيْنِ صاحِبِهِ القَـــذى و فِـيْ عَـيْـنِـهِ جِـذعٌ و ما هُـوَ مُـبْـصِرُ

---

أيُّـها الجِـيْـل...

تواضعْ و لا تَـحْـقِرْ مَنْ هوَ أصغرُ منك سِنًّـا أو أقَـلُّ قَـدْرا، فقد يكونُ أسْـلَـمَ منكَ قلبا، و أقلَّ ذنبا، و أعْظَـمَ إلى اللهِ قُـربا.

إنَّ الكواكبَ فِيْ العُيُـونِ صَـغِـيْـرةٌ و الأرضُ تَـصْغُرُ عَنْ بِساطِ الكَوْكَـبِ

لا تَـشْـمَـخْ على مُبتلىً بمعصية، و احْمَدِ اللهَ أنْ نجَّاك مِمَّا ابتلاه، فرُبَّما يصْحَبُ عمَـلَـكَ عُـجْـبٌ يُحبِـطُـه، و يصحَبُه انكسارٌ و ندمٌ و خوفٌ مِنْ ذنبِـهِ يَـغْـفِرُ اللهُ لهُ بِـسَـبَـبِـه.

إنَّ التواضـــعَ مِـنْ خِـصَـال المُتَّـقِـيْ و بهِ التَّـقِيُّ إلى المَـعـالِـيْ يَـرْتَـقِـيْ

---

أيُّـها الجِـيْـل...

الحِكمةُ أبَتْ إلا أنْ تسكُـنَ قلباً مُـتواضِعا، و أنْ تهجُرَ قلباً مُـلِئَ كِبْـرا.

الزَّرْعُ يَـنْـبُـتُ فِيْ السَّـهل و لا ينبُـتُ على الصَّـفا.

من شمَخَ برأسه إلى السَّقْـفِ شَـجَّـه، و مَنْ طأطأهُ أظَـلَّـهُ و أكَـنَّـه.

ما طار طيرٌ و ارتَـفَـع إلا كما طارَ وَقَعْ.

السُّـنبُـلـةُ المُـثْـقَـلةُ بالحَـبِّ تَـحْـنِـيْ رأساً، و الفارغةُ تتعالى على السَّـنابِـلِ و لا تَـصْـلُـحُ إلا علَـفا.

مَـلأى السَّـنابلِ تَـنْـحَـنِـيْ بِـتَـواضُـعِ و الْـفَـارِغـاتُ رؤوسُهُـنَّ شَـوامِـخُ

مَنْ علا بعلمِهِ و خُـلُـقِهِ و تواضُـعِهِ لَـمْ يَـهْـبِـطْ، و مَنْ علا على قوائمِ الكُـرْسيِّ و أعناقِ الرِّجَـالِ فأحْـرِ به أنْ يَـسْـقُـطْ، و بقَـدْرِ الصُّـعود يكونُ السُّـقُـوطْ.

حَسِبَ الوَضِيْعُ الْكِبْرَ يَرْفَعُ قَدْرَهُ هَيْهَاتَ إنَّ الْكِبْرَ لَيْسَ بِرَافِعِ

---

أيُّها الجِيْل...

مقاديرُ العِبَادِ لا يَعْلَمُها حَقًّا إلا بارئُ العِبَاد.

قد يكونُ العبدُ عزيزا في أعْيُنِ الناسِ و هو عند الله بأخْبَثِ المنازل، و قد يكونُ حقيراً فِيْ أعْيُنِ الناسِ و هو عند الله بأعلى المنازل. فمِنْ مِشْكاةِ النُّبُوَّة: "لَهذا خيرٌ مِنْ مِلْئِ الأرضِ مِنْ مِثْلِ هذا"، و "أهلُ الجَنَّةِ كُلُّ ضعيفٍ مُتَضَعِّف"، و "رُبَّ أشْعَثَ أغْبَرَ ذي طِمْرَيْن لا يؤبَهُ له مدفوعٍ بالأبواب لو أقْسَمَ على الله لأبَرَّه". و في المُقابل: "إنَّهُ ليأتي الرجُلُ العظيمُ السَّمِيْنُ يومَ القيامةِ فلا يَزِنُ عندَ الله جناحَ بَعُوضَة".

انْتَسَبَ رَجُلانِ على عَهْدِ مُوسى كما صَحَّ عَنْ رسولِنا الله صلى الله عليه و سلم فقال أحدُهُما: "أنا فلانُ ابنُ فُلان – و عَدَّ تِسْعَة – فمَنْ أنتَ لا أُمَّ لك؟" فقال الآخر: "أنا فلانُ ابنُ فُلان إبنُ الإسلام". فأوحى اللهُ إلى موسى أنْ قُلْ لهذين المُنْتَسِبَيْن: "أمَّا أنتَ أيها المُنْتَسِبُ إلى تِسْعَةٍ فِيْ النَّار فأنتَ عاشِرُهُم، و أمَّا أنتَ أيها المُنْتَسِبُ إلى اثنينِ فِيْ الجَنَّةِ فأنتَ ثالثُهم".

ليستِ العِبْرَةُ بالنَّسَبِ و لا الحَسَب، المِيزانُ و المِعْيار:

"إنَّ أكرمَكم عندَ الله أتقاكُم"

لا خِيَار..

ما بَيْنَنا عَرَبٌ و لا عَجَمُ مَهْلاً يَدُ التقوى هِيَ العُلْيا
خَلُّوا خيوطَ العنكبوت لِمَنْ هُمْ كالذبابِ تَطَايَروا عُمْيا

---

أيُّها الجِيْل...

أيُّها الجِيْلُ المُتواردُ على العِلمِ توارُدَ القَطا على مَنْهَل،

كَمْ جَاهِلٍ مُتَواضِعٍ سَتَرَ التَّواضُعُ جَهْلَهُ
و مُمَيَّزٍ فِيْ عِلْمِهِ هَدَمَ التَّكَبُّرُ عِلْمَهُ
فَدَعِ التَّكَبُّرَ مَا حَيِيْتَ و لا تُصاحِبْ أهلَهُ

يا طالبَ الْعِلْم..

تواضَعْ و تَعَلَّمْ "لا أدْرِيْ"، و احْذرِ التَّعَالُمَ فإنَّهُ عَتَبَةُ الدُّخُولِ على القَوْلِ على الله بلا عِلْم، و وسيلةٌ إلى مَنْصِبِ مُفْتِيْ الْخِنْفِشار حَيْثُ لا أدَبَ و لا وَقَار.. كما قالَ بكْرٌ المِغْوار:

ذلكَ المُفْتِيْ هُوَ رَجُلٌ كانَ يُفْتِيْ كُلَّ سَائِلٍ دونَ تَوَقُّف، فَفَطِنَ أقْرانُهُ لذلك فأجْمَعُوا أمْرَهُم على امْتِحَانِه لِيَكْشِفُوا زَيْفَه، فنَحَتُوا كَلِمَةً لَيْسَ لها أصْل و هي "الْخِنْفِشار" و سَألُوهُ عنها. فعلى البديهة:

جَاءَ بِها شَوْهَاءَ لا تُبَارَى  شَنْعَاءَ تُزْجِيْ العَارَ و العُوَّارَ

قال سَمَاجَةُ المُفْتِي: إنَّهُ نَبْتٌ طَيِّبُ الرَّائحة يَنْبُتُ بأطرافِ الْيَمَن، إذا أكَلَتْهُ الإبِلُ عَقَدَ لَبَنَها، قال شاعِرُهُم:

لَقَدْ عَقَدَتْ مَحَبَّتُكُم فُؤادِيْ  كَما عَقَدَ الْحَلِيْبَ الْخِنْفِشارُ

و قالَ الأنْطاكِيُّ فيه كذا، و قالَ فُلان، و قالَ فُلان، و قالَ رسولُ الله صلى الله عليه و سلم..!

فاستوقفوه و قالوا: كَذَبْتَ على هؤلاء فلا تَكْذِبْ على رسولِ الله صلى الله عليه و سلم. و تحقَّقَ لديهم أنَّ ذلك المسكينَ جِرابُ كَذِب، و عَيْبَةُ افتراء في سبيلِ تَعالُمِه.

فَيُفْتِيْ جَاهِلاً فِيْ كُلِّ فَنٍّ  و لا يَدْرِيْ طَحَاها مِنْ دحَاهَا

و عَاقِدُ صِهْرٍ بَيْنَ كِبْرٍ و خِفَّةٍ  و جَاعِلُ سُوءِ الخُلْقِ غَالِيَ مَهْرِهِ
تَحَارُ بِحارُ الحُمْقِ فِيْ لُجِّ بَحْرِهِ  فارْبَأْ بنفْسِكَ أنْ تَكونَ كَمِثْلِهِ

فمِنْ مَا يَهُدُّ الصَّدْرَ ناسٌ تصَدَّرُوا  و ليْسُوا بأهْلٍ أنْ يَكُونُوا رَوادِفا

كَمْ و كَمْ، و كَمْ و كَمْ..

كَمْ بُلِيْنا مِنَ الْوَرَى بأُنَاسٍ  جَعَلَتْهُمْ أعْجَازُهُمْ فِيْ الصُّدُورِ

---

أيُّها الجِيْل...

تَواضَعْ لِمَنْ إنْ تَواضَعْتَ لَهْ  يَرى ذاكَ لِلْفَضْلِ لا لِلْبَلَهْ

التَّواضُعَ التَّواضُع..

و مَنْ كانتْ لديه خُيَلاءُ فلْيَدَّخِرْها لِمَا بَيْنَ الصَّفَّيْن و لو بعدَ حِيْن، كُلُّ خُيَلاءَ يُبْغِضُها اللهُ إلا فِيْ مِثْلِ ذلكَ المَوْطِنْ.

يَطِيْبُ التَّكَبُّرُ قَبْلَ اللِّقَاء  و يَومَ الْوغَى تُمْدَحُ النَّرْجِسِيَّة
سِهَامُ الْعِدا فَوْقَهُ وابِلُ  و يَصْرُخُ فَلْتُقْبِلِيْ يا مَنِيَّة
يَتِيْهُ اخْتِيالاً إذا ما مَشَى  كَمَشْيِ الْمُلُوكِ بِرِجْلٍ حَفِيَّة
لَهُ هَيْعَةُ الْحَرْبِ لَحْنُ الْفِدا  سِواهُ لَهُ الدُّفُّ و السَّامِرِيَّة

---

أيُّـها الجِـيْـل...

"إنَّ اللهَ يُـحِـبُّ التواضُع، و يُـبْـغِضُ المَـهانَـةَ و الـضَّـعَـة"

التواضعُ انكِسارُ القلبِ لله و خَـفْـضُ جَناحِ الذُّلِّ و الرَّحْمَـةِ لعِبادِه. و أمَّا بَذلُ النَّـفْس فِـيْ نَـيْـلِ شَـهَـواتِـها البَـهِـيْـمِـيَّة فهِـيَ الخِسَّـةُ و الدَّناءَةُ و المَـهَـانَـة، و شتَّـانَ ما بين السَّماءِ و السَّـمَـاوَة.

---

أيُّـها الجِـيْـل...

تَـوَقَّـحَ مَـنْ زكَّـى إلى الناسِ نَـفْسَـهُ و أوْقَـحُ مِـنْـهُ مَـنْ سَلِـيْـقَـتُـهُ الـنَّـفْـجُ

" و ما بِكُـمْ مِنْ نِعْمَـةٍ فمِـنَ الله"

و "لَـنْ يُـنْـجِـيَ أحَداً مِـنْـكُـمْ عَـمَـلُـهُ إلا أنْ يَـتَـغَـمَّـدَهُ اللهُ برَحْـمَـتِـه"

و مَنْ رأى أنَّـهُ متواضعٌ فَـقَـدَ تواضُـعَه، فـ "لا تُـزكُّـوا أنفُـسَـكُـم، هُـوَ أعْـلَـمُ بمَنِ اتَّـقى".

و ما الْـخَـيْـرُ إلا فِيْ امْـرئٍ مُـتواضِـعِ و إنَّ مُـسِـفَّ الْـمُـزْنِ أخْـلَـقُ بالمَـطَـر

و أحْـسَـنُ مَـقْـرُونَـيْـنِ فِيْ عَـيْـنِ ناظِـرٍ جـلالَـةُ قَـدْرٍ فِـيْ خُـمُـولِ تَـواضُـعِ

---

أيُّـها الجِـيْـل...

و خَـيْـرُ لِـباسٍ شرَّف المَرْءَ لُـبْـسُـهُ لِـبَاسُ ثَـنَـاءٍ طَـيِّـبِ الذِّكْـرِ ذائِـعِ
جَـمِـيْـعُ ثِـيَـابِ الدَّهْـرِ يَـبْـلى جَـدِيْـدُهـا و يَـبْـقَـى عَلى الأيَّامِ ثَـوبُ التواضُـعِ

احْذرِ الكِـبْـرَ فإنَّـهُ يَـحُـطُّ الْـقَـدْرَ و يَـجْـلِـبُ الخُـسْـر و الطَّـبْـعَ على القَـلْـب:

"كذلك يَطْـبَـعُ اللهُ على كُـلِّ قَـلْـبِ مُـتَـكَـبِّـر"،

و الصَّـرْفَ عَـنِ الآيات:

"سأصْـرِفُ عَنْ آياتِيَ الذينَ يتكبَّرون في الأرضِ بغيرِ الحقّ"،

و بُـغْـضَ الله:

"إنَّـهُ لا يُـحِـبُّ المُـسْـتَـكْـبِـرين"،

و الخَـيْـبَـة:

"و خابَ كُـلُّ جَـبَّـارٍ عَـنِـيْـد"،

و حِـرْمانَ الجَـنَّـة:

"لا يَدْخُـلُ الجَنَّـةَ مَنْ كانَ فِـيْ قَـلْـبِـهِ مِـثْـقَـالُ ذَرَّةٍ مِـنْ كِـبْـر"،

و البُـغْـضَ إلى النَّـبِـيِّ صلى الله عليه و سلَّـمَ و البُـعْدَ عنْ مجلسِـهِ يومَ القِيامَـة، و الحَـشْـرَ في صورةِ الذَّرّ و النَّـاسُ تَـطَـؤه فِـيْ تَـمامِ الذُّلّ.

و الحقيقةُ التي لا تُـضْـحَـدُ و لا تُـنْـقَـض:

إنَّ الكِـبْرَ كَـلْـبٌ يَـنْـبَـحُ فِـيْ قَـلْـبِ صاحِـبِـه، و المَلائِكَـةُ لا تَـدْخُـلُ بَـيْتاً فِيه كَـلْـب

فإنْ تَـنْـجُ مِنْـهُ تَـنْـجُ مِنْ ذِيْ عَـظِـيْـمَـةٍ  و إلا فإنِّـي لا إخَـالُـكَ نَـاجِـيـا

---

أيُّـها الجِـيْـل...

تَـواضَـعْ لِرَبِّ العَـرشِ عَـلَّـكَ تُـرْفَـعُ  فقدْ فازَ عَبْدٌ للمُـهَـيْـمِنِ يَخْـضَـعُ

تَـواضَـعْ و لا يَهُـوْلَـنَّـكَ إنْ رأيتَ فِيْ لُـجَّـةِ هذهِ الحياةِ ارْتِـفاعَ الْـبَـعَـرِ و التِّـبْـنِ و انْـخِـفاضَ الجوهَرِ و التِّـبْـر، و اضْـطِـرابَ المَـوازِيْـن و اخْـتِـلافَ المَقاييس، و انْـتِـفاشَ المُـتَـكَـبِّـرِيْـنَ و نُـفُـوقَ المُـنَـافِـقِـيْـن، و كَـسَـادَ المُـتَـواضِـعِـيْـنَ الصَّـادِقِـيْـن. فإنَّـما هيَ لَـحَـظاتٌ لِحِكْـمة و يَـعُـودُ بَـعْـدَها كُـلُّ شَـيءٍ لأصْـلِـه.

التِّـبْـنُ تِـبْـنٌ و الـتِّـبْـرُ تِـبْـرٌ  و الْـوَرْدُ[3] وَرْدٌ و الْـقِـرْدُ قِـرْد

و القِـرْدُ قِـرْدٌ و لَـوْ حَـلَّـيْـتَـهُ الذَّهَـبَ  و لوْ تَـعَـلَّـمَ نُـطْـقَ الإنْـسِ و الْـجَـانِ

يـا أيُّـها المُـتَـعالِـيْ و هُـوَ مُـنْـتَـفِـخٌ  كَـدُمْـيَـةٍ فِيْ يَـدِ الأطْـفالِ تُـبْـتَـذَلُ
طارَ الْـقِـناعُ الذي تُـخْـفِـيْ بِـهِ زَمَـناً  وَجْـهَ الحَـقِـيقةِ فاعْـقِـلْ أيُّها الخَـبِـلُ

تَـواضَـعْ إذا كُـنْـتَ تَـبْـغِـيْ العُـلا  و كُـنْ راسِـياً عِـنْـدَ صَـفْـوِ الغَـضَـبْ
فَـخَـفْـضُ الْـفَـتَـى نَـفْـسَـهُ رِفْـعَـةٌ  لَـهُ و اعْـتَـبِـرْ بِـرُسُـوبِ الذَّهَـبْ

---

[3] - يُـقصد بالورد هنا الأسد، حيث أن من أسمائه الورد. و الله أعلم

أيُّـها المُـعَـلِّــمُ و المُـرَبِّــيْ...

التَّــوازُنَ التَّــوازُنَ فِيْ المَدْحِ و التَّـقْـدِيْـرِ و الـثَّــناء، فَمِنَ الطُّـلاَّبِ مَنْ تَـهْـفو نَـفْـسُهُ و تَـرْنُـو عَيْنُهُ بالثَّـناء لِكُـلِّ فَـضِيْـلةٍ فَـيْـزدادُ قُـوَّةً و جِـدًّا و إقْـبَـالا، و مِـنْـهُـمْ مَـنْ يَـبْـعَـثُ فيهِ المَدْحُ و الثَّـنَـاءُ تَـعالِياً و غُرُوراً و تِيْـها.

فتَـفَـرُّساً فِيْ طَـبائِعِ النُّـفُـوسِ تَـفَـرُّسا.. و الحِـكْـمَـةَ الحِـكْـمَـةَ، و القَـصْدَ الْـقَـصْدَ أيُّها المُرَبُّـون.

و تأمَّـلوا قولَ الإبْـراهِيْـمِـيِّ فِيْ المَضْـمُـون:

لا تُـجَاوِزُوا حَدًّا إلى حَدّ فتَـضُرُّوا مِنْ حَيْثُ قَـصَدتُمُ النَّـفْـع..

الْـمَدْحُ مُذْكٍ للنَّـشاط، و زِيَـادَتُـهُ مَدْعَـاةٌ للْـغُـرور، و لأنْ تُـخْـمِدُوا نشاطاً خَيْرٌ مِنْ أنْ تُـشْـعِلُـوا غُـرورا. النَّـشاطُ قَـدْ يَـعُـودُ، والْـغُـرُورُ قَـدْ لا يَـزول، والْـغَـرائِـزُ ضَـارِيَـة، و التَّـجَـارِبُ فَـضَّـاحَـة.

والأُسْـوَةُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلَّـم..

قالَ لِـمَـادِحٍ: "وَيْـحَـكَ قَـطَـعْـتَ عُـنُـقَ صَـاحِـبِـك".

و مَـعَ ذا قالَ فِيْ بعضِ أصحابِـه: "خَـيْـرُ فُـرْسَـانِـنا أبو قَـتَـادَة، و خَـيْـرُ رجَّـالَـتِـنا سَـلَـمَـة".

و قالَ لابنِ عُـمَـر: "نِـعْـمَ الرَّجُـلُ عبدُ الله".

هذا، و خَـيْـرُ الْـهُـدَى هُـدَى مُـحَـمَّـدِ ابْـنِ عَـبْـدِ الله.

فَـهُـوَ المُــهَـنَّـدُ مَـا نَـبَـا إذْ يَـضْـرِبُ ... و الشَّـمْسُ فِيْ أُفْقِ العُلا لا تَـغْرِبُ
و يَـحِـقُّ أنْ أطِـئَ السِّـمَـاكَ بِـهَـدْيِــهِ ... إنَّ السِّماكَ عَـلَـيَّ لا تَـسْـتَـصْــعِـبُ

---

أيُّـها الجِـيْـل...

التَّـواضُـعَ التَّـواضُـع..

أفْـضَـلُ العِـبَـادَةِ التَّـواضُـعْ، متى ما ظَـفِـرْتَ بأهْـلِـهِ فانْـصُـبْ خَـيْـمَـتَـك، و اضْـرِبِ الأوْتَـاد، و اعْـقِـدِ الأطْـنَـاب، و الْـزَمْ مَـضَـارِبَـهُـم، و اصْـبِـرْ نَـفْـسَـكَ مَـعَـهُـمْ، و لا تَـعْـدُ عَـيْـنـاكَ عَـنْـهُـم.

فالْـمَـرْءُ على دِيْـنِ خَـلِـيْـلِـه

و الطَّـبْـعُ لِـصٌّ

و الصَّـاحِـبُ بِـصَـاحِـبِـه

و رُبَّ فَتَـى عَلَـى خُـلُـقٍ و دِيْنِ
أحاطَ بِـهِ جَبَابِـرَةُ الْبَرايا فمازالُـوا بِـهِ حتَّى تَجَبَّرْ
إذا رَاضَ النُّمُورَ أخو مُيُولٍ فلا تَعْجَبْ إذا هُوَ قَدْ تَنَمَّرْ

أخْضِعْ نَفْسَكَ لِلْحَقّ و انْقَدْ لهُ و جاهِدْها عَلَيْه. و اعْلَمْ أنَّ التَّواضُعَ للهِ و الإزْراءَ بالنَّفْسِ و هَضْمَها لَيَقْطَعُ مِنَ المَسَافاتِ فِيْ السَّيْرِ إلى اللهِ و الدَّارِ الآخِرَةِ ما لا يَقْطَعُهُ ظَمَأُ الْهَواجِرِ بالصِّيامِ و سَهَرُ اللَّيْلِ بالْقِيام. فإذا تَذلَّلَتِ الرِّقَابُ تَقَرُّباً مِنْها إلَيْهِ فعِزُّها فِيْ ذُلِّها.

يَبْقَى لِلْمُتواضِعِ الثَّواب، و يَفْنَى الْكِبْرُ و الإعْجَاب، و يَعُودُ إلى التُّرابِ كُلُّ خارِجٍ مِنَ التُّراب، "و الذينَ جَاهَدُوا فِيْنا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا" وَعْدُ مُنْزِلِ الْكِتاب و مُجْرِيْ السَّحاب.

---

أخِيْراً مَعْشَرَ الإخْوة...

هذا هُوَ الْعَرْفُ الذي رَدَّدْتُهُ مِراراً فِيْ قَوْلِيْ:

فَمِنْ نَفْحٍ إلى عَرْفٍ و إيْمَاضٍ و إكْلِيْلِ

إنَّهُ عَرْفٌ فِيْ تَواضُعِهِ صلى الله عليه و سلَّم.. و تَواضُعُه تَواضُعُه.

بَحْرٌ مُتَلاطِمُ الأمْواج.. يَهِيْمُ الْخِرِّيْتُ فِيْ مَهَامِهِهِ و الْفِجَاج..

فَلَمْ يُخْلَقْ مِنَ الْمُتَكَبِّرِيْنَ
و ذاكُمْ خَيْرُ مَنْ رَكِبَ المَطَايا و مَنْ قَرَأَ الْمَثَانِيْ و الْمِئِيْنَ

إلْزَمْ غَرْزَه، و تَشَبَّثْ بِخُلُقِه.

هَذا هُوَ الْعَرْف.. فِيْ اخْتِلاسَةِ طَرْف.

فخُذِيْ يا أُمَّةَ الإيْمَانِ كَنْزاً و امْنَحِيْ مِنْه عِرَاقاً و شَآما
و امْنَحِيْ مِنْهُ قَرِيْباً و بَعِيْدا و انْشُرِيْ مِنْهُ على الأرضِ السَّلاما

يا ربِّ أسْكِنَّا فَسِيْحَ جَنَّتِكْ و النَّارَ نَجِّنَا مِنْهَا بِرَحْمَتِك
و اغْفِرْ لَنا مَا كانَ مِنْ ذنوبِنا و زِيِّنِ الإيْمَانَ فِيْ قُلُوبِنا
و الْحَمْدُ للهِ عَلَى إتْمَامِهِ ثُمَّ صَلاةُ اللهِ مَعْ سَلامِه
عَلَى النَّبِيْ و آلِهِ و صَحْبِهِ و حِزْبِهِ و كُلِّ مُؤْمِنٍ بِهِ

و "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ و بِحَمْدِك، أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا أنْت، اسْتَغْفِرُكَ و أتُوبُ إلَيْك"

---

---

تَـمَّـتْ كتابته و ضبطُـه بعون الله وتوفيقه في : ١٤\٨\٢٠١٠م
الموافق لـ: ٠٤\٩\١٤٣١هـ

ولله الحمد والمِـنَّـة

و لا تَـنْـسَوْنِـيْ و والِـديَّ مِـنْ صالح دعائكم

---

**سامر محمود الفيومي**
**eng.fayoumi@gmail.com**